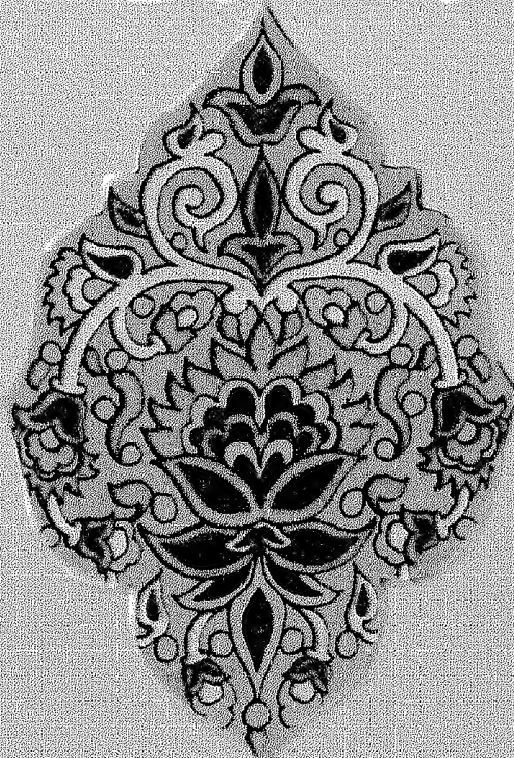


أبي المطالب

في نجاة أبي طالب



تأليف

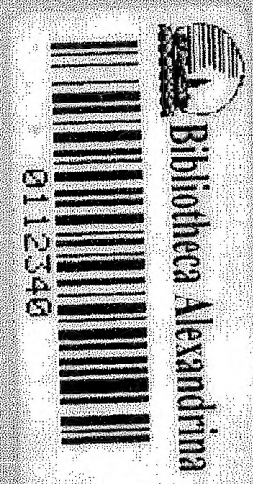
أحمد بن الزينى د. علاء الشافعى المكي

المتوفى عام ١٢٠٤ هـ

إعداد وتقديم

صالح الوردانى

إهداء
للإعلام والنشر



أَسْنَى الْمَطَالِبِ

فى نجاته أبى طالب

تأليف

أحمد بن الزينى دحلان الشافعى المكى

المتوفى عام ١٣٠٤ هـ

إعداد وتقديم

صالح الوردانى

الهدى
للإعلام والنشر

اسم الكتاب: اسنى المطالب فى نجاته أبى طالب

المؤلف: احمد بن زينى دحلان

الناشر: الهدف للإعلام

رقم الإيداع ٩٩/١١٥٦٢

الترقيم الدولى: 977-5751-17-9

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم.....م

إن قضية تكفير الآباء والأجداد والأمهات ممن لهم صلة بالرسول (ص) إنما هي قضية سياسية وليست دينية.

فليست هناك نصوص قطعية تجزم بذلك وإنما هي مجموعة من الروايات محل أخذ ورد وقبول ورفض بين الفقهاء.

ولقد ترسخت هذه القضية في العصر الأموي حين كان الصراع على أشده بين الأمويين وبنى هاشم ثم تبناها فقهاء الشام من بعد.

وجاء العباسيون فأهملوا هذه القضية أو تركوا فكرة التكفير تترسخ في أذهان المسلمين من أجل الحط من بنى هاشم خصومهم.

من هنا فقد حالت السياسة دون حسم هذه القضية حيث أن الفقه الذي ساد في واقع المسلمين منذ العصر الأموي وحتى الآن هو الفقه المعادي لبنى هاشم وآل البيت، ذلك الفقه الذي تجاوز حدود الآباء والأجداد ليصل إلى شخص النبي (ص) ذاته فيحيطه بكم من الروايات التي تحط من قدره وتشوه صورته بل وتشكك في دوره ورسالته^(١).

ذلك الفقه الذي ارتبط بالحكام ولم يرتبط بالقرآن.

(١) انظر نماذج من هذه الروايات التي تفضح علاقة الرسول بالنساء وتضعه في دائرة المشرع وتصفه بالظالم تارة والجهل والنسيان تارة وغير ذلك من الصفات التي لا تليق بمقامه (ص) في كتابنا، دفاع عن الرسول.

ذلك الفقه الذى نتجت منه قضايا كثيرة لا تقل خطورة عن القضية التى نحن بصدددها هنا.

مثل قضية الإمامة^(٢).

وقضية الروايات^(٣).

وقضية العقائد التى ورثها المسلمون^(٤).

وقد يسأل سائل: ماهو الهدف السياسى من وراء تكفير آباء النبى واجداده؟ وهل آباء النبى واجداده من الأهمية بحيث يصبحون قضية تنعكس على الإسلام؟

والجواب ما يلى:

إن الصراع بين البيت الأموى والبيت الهاشمى له جذوره التاريخية العميقة التى تمتد إلى ما قبل الإسلام بقرون طويلة. وهذا الصراع قد ولد نوعاً من العداء والخصومة التى لا يمكن أن يمحوها الإسلام^(٥).

لأن الإسلام ببساطة شديدة لا يحول الناس إلى ملائكة.

ولن يجعل أبو سفيان وهند وولدهما معاوية ومن ورائهم بنى أمية يلقون وراء ظهورهم ذلك الإرث العدائى للإسلام وبنى هاشم بمجرد أن دخل الرسول (ص) مكة فاتحاً.

(٢) انظر لنا تثبيت الإمامة وعقائد السنة وعقائد الشيعة.

(٣) انظر لنا النص والسياسة.

(٤) انظر لنا اهل السنة شعب الله المختار.

(٥) انظر النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى وكتب التاريخ.

وهذا هو السر من وراء وضع الرسول لبنى أمية فى دائرة المؤلفة قلوبهم ولم يخرجهم من هذه الدائرة حتى توفى^(٦).

وهذا هو السر وراء حمل معاوية ومن وراءه بنى أمية راية الحرب على علي بن أبى طالب بمجرد أن تمكن وملك القوة.

ولأن معاوية يفتقد إلى الشرعية والوزن التاريخى فى مواجهة علي فقد لجأ إلى الحيلة والمكر واختراع الروايات التى تعلو من قدره وتحط من قدر خصمه.

أما الروايات التى تعلو من قدره فقد سقطت بعد سقوط الأمويين وأعلن فقهاء العصور التالية رفضها وحكموا عليها بالوضع^(٧).

أما الروايات التى تحط من قدر الإمام علي وبنى هاشم فقد تنبه البعض لبعضها وممر أكثرها وتخلل كتب الأحاديث^(٨).

ومن هذه الروايات ما يتعلق بإيمان أبوى النبى وأجداده وأبى طالب.

(٦) رفع عمر أبو سفيان ومعاوية من المؤلفة قلوبهم وأوقف العمل بهذا الحكم. انظر علاقة عمر بمعاوية فى الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ترجمة معاوية وكتب التراجم الأخرى وكتب التاريخ، وانظر لنا السيف والسياسة.

(٧) انظر باب ذكر معاوية فى فتح البارى شرح البخارى ج ٧. وفيه قال إسحاق بن راهويه، لم تصح فى معاوية منقبه. وانظر تطهير الجنان واللسان عن الخطورة والتفوه بثلب معاوية بن أبى سفيان لابن حجر الهيتمى.

(٨) انظر مثلاً قصة زواج علي بابنه أبى جهل فى كتاب النكاح فى البخارى. وانظر كتابنا الخدعة. واحاديث نبوية اخترعتها السياسة.

ولو اعتبرنا أن التشكيك فى إيمان آباء النبى وأجداده سوف ينعكس على الإمام علي. فإنه سوف ينعكس بالتالى على الرسول (ص) ومنه سوف ينعكس على الإسلام. فإن العلاقة الوطيدة التى كانت بين الرسول (ص) وعلى ليست علاقة قبيلة وإنما هى علاقة شرعية تشهد بها عشرات النصوص^(٩).

وإذا كان القوم قد شهدوا بصحة الخبر الذى يقول أن الرسول اصطفاه الله من بنى هاشم واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفى قريش من كنانة واصطفى كنانة من ولد إسماعيل فهى سلاله منتقاة بعناية الله سبحانه^(١٠).

وشهد آخرون بأن قوله تعالى ﴿وتقلبك فى الساجدين﴾ دليل على طهارة سلاله النبى (ص)^(١١).

وشهد آخرون بأن النصوص التى تتعلق بالاستغفار للمشركين هى نصوص مدنية لا صلة لها بالواقع المكى وأن الروايات التى رويت حولها غير ثابتة^(١٢).

واكد آخرون أن الروايات التى تفيد كفر آباء النبى وأجداده وأبو طالب إنما هى فى نفس الوقت تفيد إيمانهم^(١٣).

فمن أين إذن أتى الحكم بالكفر والضلال؟

-
- (٩) انظر كتب السنن أبواب فضائل الإمام على وانظر خصائص الإمام على للنسائى.
- (١٠) سياى ذكر هذا الحديث ضمن فصول الكتاب.
- (١١) انظر تفسير الرازى سورة الشعراء.
- (١٢) سياى بيان ذلك وانظر الفوائد الكامنة فى إيمان السيدة آمنة والتعظيم والمنة فى أن أبوى المصطفى (ص) فى الجنة للسيوطى.
- (١٣) سياى ذكر ذلك.

لقد كان بنو هاشم طوال تاريخهم يتولون أمور البيت الحرام والاعتناء بالحجاج والقيام بالمهام المقدسة وهذا يعنى أنهم لم يكونوا كبقية الناس.

يعنى أنهم الطائفة الموحدة على دين إبراهيم (ع).

يعنى أنهم الطائفة المميزة خلقاً وديناً.

وإن دراسة سيرتهم تؤكد هذه الحقيقة^(١٤).

من هنا يمكن القول أن الطعن فى آباء النبى (ص) وأجداده يعنى الطعن فى النبى ويعنى التشكيك فى اختياره من قبل الله تعالى من باب آخر.

وفى يقينى أن هذا هو الهدف من وراء ذلك كله. فقد دفع الحقد بينى أمية إلى التشكيك فى أصل رسول الإسلام ليكون باباً للتشكيك فى الإسلام.

وهنا تبرز أهمية القضية وخطورتها.

ونعود إلى أبى طالب موضوع الكتاب الذى بين أيدينا طارحين السؤال التالى:

ماهى حقيقة علاقة أبو طالب بالرسول (ص) ؟

وهل كانت علاقة قبلية أم دينية ؟

والإجابة تفرض علينا استعراض العلاقة من بدايتها.

بدأت العلاقة بين الرسول وأبى طالب بعد وفاة عبدالمطلب جد الرسول (ص)

(١٤) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ وستاى الإشارة لذلك.

الذى كان عمره يومئذ ثمانية سنوات بوصية من عبدالمطلب الذى أوصى ولده أبو طالب بالرسول فجعله فى كفالته^(١٥).

والسؤال هنا لماذا جعل عبدالمطلب النبى فى كفالة أبى طالب ولم يجعله فى كفالة شقيقه عبدالعزيز بن عبدالمطلب الذى عرف فيما بعد بأبى لهب؟

والجواب هو أن الأمور لم تكن بالاختيار أو بالمفاضلة وإنما هى أمور مرتبة من قبل الله سبحانه. ولو كان الرسول فى كفالة عبدالعزيز لكان الأمر غير الأمر. أى أن الرسول لو لم يكن مختاراً من البداية للرسالة لكان من الممكن أن يقع من نصيب عبدالعزيز ولكن لكونه رسولا مختاراً فيجب أن يكون فى كفالة من يدرك هذه الحقيقة وهو مهياً لقبولها والسير فى ضلالها. ولذا كان فى حضانة عبدالمطلب ثم فى كفالة أبى طالب وهذه هى الإشارة الأولى لإيمان أبى طالب.

وتروى الكتب أن الرسول (ص) رحل مع عمه أبى طالب إلى الشام فى تجارة فلفت الرسول انتباه بحيرا الراهب وتنبأ له بالنبوة. وكذلك لفت الرسول انتباه بعض الكهان وأهل الفراسة مما دفع بأبى طالب إلى أن يعزل النبى عن هؤلاء ويغيبه عنهم^(١٦).

وهذه هى الإشارة الثانية لإيمان أبى طالب.

فقد كان من الممكن لأبى طالب أن يستثمر هذه الفرصة التى لفت فيها النبى .
انظار القوم فى تقوية مركزه وتحصيل الشهرة بين العرب لكنه فعل العكس من ذلك ----

(١٥) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ.

(١٦) انظر المراجع السابقة.

وغيب النبى عن الأنظار. وذلك الموقف ليس له سوى تفسير واحد وهو الحفاظ على النبى المتريص به من الأعداء والخصوم، ولو لم يكن أبو طالب ينظر إلى ابن أخيه على أنه نبى لشهره بين الناس بدافع القبلية.

وهذه هى الإشارة الثالثة لإيمان أبى طالب.

ويروى أن أبا طالب خطب فى الناس حين تزوج رسول الله بخديجة فقال بعد أن مدح النبى وبنى هاشم: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلارجح. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم^(١٧).

فمن أين لأبى طالب هذا العلم بمستقبل ابن أخيه ؟

وإذا كان قد سمع هذا الكلام من سواه فهذا يعنى أنه قد آمن به.

وهذه إشارة رابعة لإيمان أبى طالب.

ويروى أن أبا طالب عثر على علي وهو يصلى مع الرسول (ص) فى شعاب مكة مستخفين عن الناس فلم يعترض عليه. ولم ينهه عن فعله بل باركهما وايدهما ووعد الرسول بالنصرة^(١٨).

(١٧) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ.

(١٨) المراجع السابقة.

وهذه إشارة خامسة إلى إيمان أبى طالب.

وحين صدع رسول الله (ص) بالدعوة ضغط كبراء قرىش وسادتها على أبى طالب وهددوه كى يمنع الرسول من الدعوة للإسلام ويسلمه لهم فأبى وقبل معاداة قرىش على معاداة رسول الله (ص) وقال: اذهب يا ابن أأى فقل ما أحببت. فو الله لا أسلمك أبداً^(١٩).

فهل هذا الموقف يدل على الإيمان أم يدل على القبلية ؟
بالطبع يدل على الإيمان.

وأين القبلية وقد نبذ قومهم وعاداهم من أجل رسول الله ؟

وحين تأمرت قرىش على المسلمين وعذبتهم وحرضت كل قبيلة على البطش بمن آمن منها جمع أبو طالب بنى هاشم ودعاهم إلى نصرة الرسول وحمائته فاجتمعوا إليه وقاموا معه^(٢٠).

ولما قرر الرسول (ص) دفع المسلمين إلى الهجرة للحبشة هرباً من البطش والأذى أرسلت قرىش وراءهم من يحرض النجاشى على المسلمين كى يطردهم من بلاده. وما كان من أبى طالب إلا أن أرسل إلى النجاشى يحضه على حسن جوارهم والدفع عنهم^(٢١).

(١٩) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ.

(٢٠) المراجع السابقة.

(٢١) المراجع السابقة.

وهذا موقف ينم عن إيمانه. فقد تخطى بموقفه هذا حدود رسول الله الذى يعيش فى حمايته ليصل إلى حدود المسلمين الذين هم بعيدون عنه.

وإذا كانت هناك مصلحة قبلية كما يزعمون وراء نصرة أبو طالب للنبي (ص). فما هى المصلحة القبلية من وراء نصرته للمسلمين خارج قريش وحدود العرب ؟

ولما قررت قريش مقاطعة بنى هاشم وحصروهم فى الشعب وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة لم يتراجع أبو طالب عن نصرة النبي ومآزرته وشاركه كل بنى هاشم عدا عبدالعزى بن عبدالمطلب (أبو لهب)^(٢٢).

وتحمل أبو طالب ومعه النساء والأطفال الجوع والعطش والحرمان من أجل الإسلام. وكان الأجدد بالقبيلة أن تدفع بأبى طالب - وقد استمر الحصار سنوات - إلى التخلّى عن الرسول (ص) فى سبيل رفع الحصار. ولكنه الإيمان.

الإيمان هو المبرر الوحيد الذى يجعل أبو طالب يضحي مثل هذه التضحية.

وإذا كان القوم يعترفون بحب أبى طالب للرسول (ص) فسوف نعرض لبعض الأحاديث الواردة فى الحب على لسان الرسول (ص).

قال (ص): من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان^(٢٣).

(٢٢) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتاب التاريخ.

(٢٣) رواه الترمذى.

والسؤال هنا: ألا ينطبق هذا الحديث على سلوك أبى طالب ومواقفه من الرسول والدعوة ؟

وقال (ص): لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين^(٢٤).

ولقد قدم لنا أبو طالب البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على هذا الحب فاستحق الإيمان.

وقال (ص): المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده^(٢٥).

وإن أبا طالب لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فقط بل نصر رسول الله ونصرهم. أفلا يستحق بعد هذا أن يكون مسلماً.

وقال الحسن البصرى: الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل^(٢٦).

وليس هناك من تعبير أدق من تعبير البصرى فى وصف حال أبى طالب فهو صدق بعمله ما وقر فى قلبه. وفى هذا القول كفاية.

أما هذا الكتاب الذى بين أيدينا فقد حشد الكثير من الدلائل والبراهين حول إيمان أبو طالب تترك القارئ يتبحر فيها ويستبصر بها محكماً عقله وفطرته مسترشداً بحركة النبى (ص) وسيرته داعين المولى عز وجل طالبين منه الهداية والرشاد.

صالح الوردانى

القاهرة

(٢٤) البخارى ومسلم كتاب الإيمان.

(٢٥) مسلم كتاب الإيمان

(٢٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية باب الكلام فى زيادة الإيمان.

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين..

أما بعد..

فيقول العبد الفقير خادماً طلبة العلم بالمسجد الحرام كثير الذنوب والآثام
المرتجى من ربه الغضران أحمد بن زيني دحلان قد وقفت على تأليف جليل للعلامة
النبيل مولانا السيد محمد بن رسول البرزنجي المتوفى سنة ألف ومائة وثلاثة فى نجاته
أبوى النبى (ص) وذيله فى آخره بخاتمة أبى طالب عم النبى (ص) وأثبت نجاته^(١).

وأقام أدلة على ذلك وبراهين من الكتاب والسنة وأقوال العلماء يحصل لمن تأملها
أنه ناج بيقين مع بيان معان صحيحة للنصوص التى تقتضى خلاف ذلك حتى صارت
جميع النصوص صريحة فى نجاته وسلك فى ذلك مسلكاً ماسبقه إليه أحد بحيث ينقاد
لأدلته كل من أنكر نجاته وجحد.

وكل دليل استدل به القائلون بعدم نجاته قلبه عليهم وجعله دليلاً لنجاته وتتبع كل
شبهة تمسك بها القائلون بعدم النجاة وأزال ما اشتبه عليهم بسببها وأقام دليلاً على
دعواه.

(١) البرزنجي، [نسبة إلى قرية برزنج فى العراق] من أعيان القرن الثانى عشر وينتهى
نسبه إلى الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن
الحسين بن على بن أبى طالب. له الكثير من المصنفات. انظر سلك الدرر فى أعيان
القرن الثانى عشر للمرادى الدمشقى. والزينى دحلان هو: أحمد بن زينى دحلان
المكى الشافعى صاحب كتاب خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ت ١٣٠٤هـ.

وكان فى بعض تلك المباحث مواضع دقيقة لا يفهمها إلا الفحول من العلماء ويعسر فهمها على القاصرين من طلبة العلم وبعض تلك المباحث زائدة عن إثبات المطلوب ذكرها تقوية لما أثبتته وكشف الحجاب كل محجوب.

فأردت أن أخص فى هذه الوريقات المقاصد التى أثبت بها نجاه أبى طالب ليكون من عرفها فى كل محفل هو الغالب.

واجتهدت فى تسهيل عبارات تلك المباحث الدقيقة حسب الإمكان وحذفت ما كان زائدا عما هو المقصود بالبيان وزدت كلاما يتعلق بذلك وجدته فى المواهب اللدنية والسيرة الحلبية له مناسبة لهذه القضية.

فجاء الجميع وافيا بتحصيل المراد نافعا إن شاء الله كل من وقف عليه من العباد وسميت هذا المؤلف (اسنى المطالب فى نجاه أبى طالب).

وأسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق والإخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

الباب الأول: إثبات الإيمان

فأقول إن العلامة البرزنجى أثبت أولا حصول الإيمان لأبى طالب بالحجج والبراهين ثم أثبت له النجاة وخرج ذلك على أرجح الأقوال عند المحققين.

أما إثبات الإيمان فإنه يتوقف أولا على معرفة معنى الإيمان ومعناه شرعاً التصديق القلبى بوحداية الله تعالى ورسالة النبى (ص) والتصديق بكل ما جاء به عن الله تعالى^(١).

(١) أصل الإيمان فى اللغة التصديق. يقال آمنت به وآمنت له إذ صدقته ومنه قوله تعالى: «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا» [يوسف: ١٧]. أى بمصدق.

وقال أبو الحسن الأشعري ت ٣٢٤هـ: أن الإيمان هو التصديق لله ولرسوله عليهم السلام فى أخبارهم ولا يكون هذا التصديق صحيحاً إلا بمعرفته. والكفر عنده هو التكذيب. وإلى هذا القول ذهب ابن الراوندى والحسين بن الفضل البجلي. انظر أصول الدين للبغدادى عبدالقاهر ابن طاهر التميمى ت ٤٢٩هـ.

وقال ابن أبى العز الحنفى ت ٧٩٢هـ. اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً، فذهب مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان. وذهب الكثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوى، أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان. ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصل. وإلى هذا ذهب الماترىدى ت ٣٢٣هـ. ويروى عن أبى حنيفة. انظر شرح العقيدة الطحاوية تحقيق أحمد شاکر طبع القاهرة.

وأجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه، أنه عاص لله ورسوله. مستحق للوعيد.

وقالوا: أن القول قسمان: قول بالقلب وهو الاعتقاد.

وقول باللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب وهو نية وإخلاصة.

وعمل الحوارج.

فإذا ما زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الآخر. فإن تصديق القلب شرط فى اعتبارها وكونها نافعة. وإذا بقى تصديق القلب وزال الباقي فهذا موضع المعركة.

واما الإسلام شرعاً فهو الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعية^(٢).

الإسلام علانية والإيمان فى القلب فقد يجتمعان وذلك فى المصدق بقلبه المقر بالشهادتين.

وينفرد الإسلام عن الإيمان فى المنافق الذى ينطق بالشهادتين وينقاد لأحكام الإسلام ظاهراً وهو بقلبه مكذب غير مصدق.

وينفرد الإيمان عن الإسلام فىمن يصدق بقلبه ولا ينطق بالشهادتين عناداً ولا ينقاد للأفعال الظاهرة الشرعية وذلك ككثير من علماء اليهود الذين عرفوا أن سيدنا محمداً (ص) رسول صادق ولم ينطقوا بالشهادتين ولم يتبعوه ولم ينقادوا لما جاء به.

وقد قال الله تعالى فيهم «يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ» [البقرة: ١٤٦].

فهم لم يقرؤا برسالته عناداً ويعتقدون فى قلوبهم صدقه فى دعوى الرسالة فهؤلاء مؤمنون به فى الباطن مكذبون به فى الظاهر عناداً فلا ينفعهم الإيمان الباطنى حيث كان تكذيبهم الظاهرى عناداً.

= والمعنى اللغوى وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقاً لله. وهو أن يصدق الرسول (ص) فيما جاء به من عند الله. فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى. انظر شرح الطحاوية.

(٢) وهو ما يحكم الفقهاء بفسق تاركه واعتباره من العصاة وهو مفروض الطاعات كالصلاة والزكاة والصيام والحج واجتناب المحارم. انظر شرح الطحاوية.

واما إذا كان عدم الانقياد الظاهرى وعدم النطق بالشهادتين لعذر لا لعناد فإن الإيمان الباطنى ينفع صاحبه باطنًا عند الله فى الدار الآخرة ولكنه فى الظاهر يعامل معاملة الكفار.

فيقال إنه كافر بحسب أحكام الدنيا.
والعذر الذى يمنع من الانقياد فى الظاهر له أسباب منها: الخوف من ظالم إن أظهر إسلامه وانقياده أن يقتله أو يؤذيه اذى لا يحتمل.

أويؤذى أحداً من أولاده أو أقاربه فهذا يجوز له إخفاء إسلامه.
بل لو أكرهه الظالم على التلفظ بالكفر فإنه يجوز له أن يتلفظ به.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [النحل، ١٠٦].

ومن هذا القبيل امتناع أبى طالب من الانقياد فى الظاهر خوفاً على ابن أخيه وهو سيدنا محمد (ص) فإنه كان يحميه وينصره ويدفع عنه كل اذى ليبلغ رسالة ربه.

وكان كفار قريش يمتنعون من إيذاء النبى رعاية لأبى طالب ولحمائته. وكانت رئاسة قريش بعد عبدالمطلب لأبى طالب فكان أمره عليهم نافذاً وحمايته عندهم مقبولة لعلمهم بأن أبا طالب على ملتهم ودينهم ولو علموا أنه أسلم وتبع النبى (ص) فإنهم لا يقبلون حمايته ونصره بل كانوا يقاتلونه ويؤذونه ويفعلون معه من الأذى أكثر مما يفعلونه بالنبى (ص).

ولا شك ان هذا عذر قوى لأبى طالب مانع من إظهار الانقياد الظاهر والاتباع للنبي فلهذا كان يظهر لهم انه على دينهم وملتهم وأنه إنما يدافع عن النبي لأجل القرابة التى بينه وبينهم.

وكانوا يعتقدون أنه يحميه وينصره للحمية لا للاتباع فى الدين بل للحمية التى كانت مشهورة بين العرب وقد كان فى الباطن قلبه مملوًا بتصديقه (ص) لما شاهده من المعجزات كما سيأتى إيضاح ذلك كله.

وكان يأتى فى الظاهر بالفاظ تدل على ذلك وبالفاظ أخرى يوهم بها على الكفار أنه على دينهم وليس متابعا للنبي (ص) ليدفع بها عن نفسه الشبهة والتهمة من أنه متبع للنبي لينفذوا حمايته ونصره.

ثم ذكر البرزنجى اختلاف العلماء فى النطق بالشهادتين هل هو شطر أى جزء من مسمى الإيمان أو شرط لإجراء الأحكام الدينية. فيترتب على كونه شطرًا أى جزء إن تارك ذلك مع القدرة يكون كافرًا مخلدًا فى النار.

وعلى كونه شرطًا لإجراء الأحكام الدينية يكون غير مخلد.

فقال: قال السفاقسى فى شرح التمهيد: أن كون الإيمان هو التصديق فقط هو الرواية الصحيحة عن أبى حنيفة^(٣).

وقال العلامة العيني فى شرح البخارى: أن الإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام

(٣) كما اشرنا سابقا وانظر شرح الطحاوية واصول الدين.

حتى أن من صدق الرسول فى جميع ما جاء به فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى وإن لم يقر بلسان^(٤).

وقال حافظ الدين النسفى: إن ذلك هو المروى عن أبى حنيفة وإليه ذهب أبو الحسن الأشعرى فى أصح الروايتين عنه وهو قول أبى منصور الماترىدى^(٥).

وقال عضد الدين فى المواقف: الإيمان عندنا هو التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة.

وقال شارحه السيد الشريف: يعنى بقوله عندنا اتباع أبى الحسن الأشعرى.

وقد قرر الغزالى هذا المذهب فى إحياء علوم الدين وأطال فيه.

وهو قول إمام الحرمين وقول الأشاعرة وقول القاضى الباقلانى والأستاذ أبى إسحق الاسفراينى ونسبه التفتازانى إلى جمهور المحققين^(٦).

واستدل له بالأحاديث منها قوله (ص): من علم أن الله ربه وإنى نبيه صادقاً عن قلبه حرم الله لحمه على النار^(٧).

(٤) انظر كتاب الجنائز وكتاب الإيمان.

(٥) كما أشرنا سابقاً.

(٦) إمام الحرمين هو الفقيه الشافعى المعروف بضياء الدين أبو المعالى عبد الملك الجوينى له الكثير من المصنفات ت عام ٤٧٨هـ.

والباقلانى هو القاضى أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بالباقلانى البصرى من علماء الكلام الأشاعرة نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى ت ٤٠٣هـ.

والاسفراينى هو إبراهيم بن مهران الاسفراينى من فقهاء الشافعية وأهل الكلام ت ٤١٨هـ.

(٧) رواه الطبرانى فى الكبير عن عمران بن حصين.

وروى مسلم عن عثمان بن عفان أن رسول الله قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة^(٨).

وروى الطبرانى عن سلمة بن نعيم الأشجعى - رضى الله عنه - قال قال رسول الله (ص) من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة قال قلت يا رسول الله وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق^(٩).

قال وفى أحاديث الشفاعة من هذا شئ كثير حتى يقال له (ص) اخرج من النار من فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة خردل من إيمان بتكرير أدنى ثلاث مرات.

وعقد البرزنجى فصلاً مستقلاً ذكر فيه كثيراً من تلك الأحاديث وكلها دالة على أن من كان فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من إيمان لا يخلد فى النار.

ونقل التفتازانى فى شرح المقاصد والكمال بن الهمام فى المسيرة وابن حجر فى شرح الأربعين: إن شرط النجاة فى الآخرة إذا لم يطالب - به أى النطق بالشهادتين - فإذا طولب به وامتنع عناداً وكراهة للإسلام أى امتنع امتناعاً على وجه الأباء عن الإسلام والكراهية والعناد فلا ينجو.

ويفهم من هذا القيد أنه لو ترك النطق بعد المطالبة لا إباءاً عنه ولا عناداً بل لعذر صحيح وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يكون كافراً فيما بينه وبين الله تعالى.

(٨) رواه مسلم فى كتاب الإيمان وهو دليل صريح على إيمان أبى طالب حيث ربط الإيمان بالعلم لا بالنطق.
(٩) روى هذا الحديث أيضاً مسلم فى كتاب الإيمان والبخارى كتاب اللباس وكتاب الجنائز. انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

بل لو تكلم بالكفر والحالة هذه لا يضره.

قال تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» فهذه النصوص كلها تدل على أن الإيمان هو التصديق فقط ويقابلها القول بأن التصديق وحده لا يكفى بل لابد من النطق باللسان مع التصديق فمن لم ينطق مع قدرته كان مخلداً فى النار وقال بهذا كثيرون^(١٠).

ونقل النووى فى شرح مسلم اتفاق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على هذا القول واعترضوا عليه فى حكاية الاتفاق^(١١).

قال ابن حجر فى شرح الأربعين أن لكل من الأئمة الأربعة قولاً بأنه مؤمن عاص بترك التلفظ بل الذى عليه جمهور الأشاعرة وبعض محققى الحنفية كما قال المحقق الكمال بن الهمام وغيره أن الإقرار باللسان إنما هو شرط لإجراء أحكام الدنيا فحسب انتهى.

ثم ذكر اختلاف العلماء فى أنه هل يشترط لفظ الشهادتين بلفظهما المعروف أو يكفى الإتيان بغير المعروف مما يدل على الإيمان.

وذكر فيه قولين للعلماء فقليل إنه يشترط اللفظ المعروف ولا يكفى غيره والراجح أنه لا يشترط خصوص اللفظ المعروف وأن الإيمان ينعقد بغير اللفظ المعروف^(١٢).

(١٠) أى من أهل السنة، انظر شرح الطحاوية.

(١١) انظر كتاب الإيمان.

(١٢) راجع ما أشرنا إليه سابقاً. وهى مسألة محل خلاف. وما دامت المسألة قد دخلت دائرة الخلاف فهذا يعنى انعدام الجزم ببطلان المرجح.

وعبارة البرزنجى ثم ليعلم أن المراد بالنطق بالشهادتين ليس النطق بخصوصهما خلافا للغزالي كما ذكر ذلك النووى فى الروضة ونسبه إلى الجميع فنقل عن الحلیمی فى منهاجه أنه لا خلاف أن الإیمان ینعقد بغير القول المعروف وهو كلمة لا إله إلا الله.

حتى لو قال لا إله غير الله أو ماعدا الله أو سوى الله أو من إله إلا الله أو لا إله إلا الرحمن أو لا رحمن إلا الله أو إلا البارى فهو كقوله لا إله إلا الله.

وكذا لو قال محمد نبى الله أو مبعوثه أو احمد أو الماحى أو غير ذلك أو ما يؤدى ذلك باللغات العجمية صح إسلامه وحكم بكونه مسلماً.

الباب الثاني: أبو طالب والنبى (ص)

ثم قال البرزنجى إذا علمت ذلك فنقول تواترت الأخبار أن أبا طالب كان يحب
النبي (ص) ويحوطه وينصره ويعينه على تبليغ دينه ويصدقّه فيما يقوله ويأمر أولاده
كجعفر وعلي باتباعه ونصره وكان يمدحه فى أشعاره بما يدل على تصديقه وكان ينطق
بأن دينه حق فمن كلامه المعروف:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ومن شعره قوله:

الم تعلموا أنا وجدنا محمداً رسولاً كموسى صح ذلك فى الكتب^(١)

وقد أوصى قريشاً باتباعه وقال والله لكأنى به وقد غلب ودانت له العرب والعجم
فلا يسبقنكم إليه سائر العرب فيكونوا أسعد به منكم.

وهذه الوصية تكررت منه مراراً تارة يوصى بها بنى هاشم وتارة يوصى بها كافة
قريش.

وأوصى قريشاً عند قرب موته بوصية طويلة ولفظها: يامعشر قريش أنتم صفوة

(١) البيت الأول والثانى وردا فى سيرة ابن إسحاق مع اختلاف يسير ولم يورد ابن هشام فى شرحه
لسيرة ابن إسحاق البيت الأول.

ونص البيت الأول هو:

وعرضت دينا قد عرفت أنه خير أديان البرية دينا

ونص البيت الثانى عند ابن إسحاق وابن هشام هو:

الم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبينا كموسى خط فى أول الكتب

الله من خلقه وانتم قلب العرب وفيكم السيد المطاع والمقدام الشجاع والواسع الباع واعلموا انكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا احرزتموه ولا شرفا إلا ادركتموه فلکم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حريكم الرب.

وانى اوصيكم بتعظيم هذه البنية - يعنى الكعبة - فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش وثباتا للوطاة وصلوا ارحامكم فإن صلة الرحم منسأة أى فسحة فى الأجل وزيادة فى العدد وتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلکم واجيبوا داعى الله واعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والمات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام.

واوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما اوصيتكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وانكره اللسان مخافة الشنآن.

وايم الله كانى انظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس د اجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء ريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه احوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده. قد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها.

يا معشر قريش كونوا له ولاة ولحزيه حماة.

وفى رواية دونكم وابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزيه حماة والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يأخذ أحد بهدية إلا سعد ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه

الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى^(٢).

فانظر واعتبر أيها الواقف على هذه الوصية كيف وقع جميع ما قاله ابو طالب بطريق الفراسة الصادقة الدالة على تصديقه النبى.

وقال لهم مرة لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم امره فأطيعوه
ترشدوا.

وقد نوه ابو طالب بنبوة النبى قبل ان يبعث لأنه ذكر ذلك فى الخطبة التى خطب
بها حين تزوج (ص) بخديجة رضى الله عنها.

فقال فى خطبته تلك الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل
وضئضىء معد وعنصر مضر وجعلنا حصنة بيته وسواس حرمة وجعل لنا بيتا محجوبا
وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن
برجل إلا رجح شرفا ونبلا وفضلا وعقلا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جسم
وكان هذا قبل بعثته (ص) بخمس عشرة سنة^(٣).

فانظر كيف تفرس فيه ابو طالب كل خير قبل بعثته فكان الأمر كما قال وذلك من
أقوى الدلائل على إيمانه وتصديقه بالنبى حين بعثه الله تعالى.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقى وانظر دلائل أبى نعيم.

(٣) ورد نص هذه الخطبة فى صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١/ ٣٩. ط بيروت من اول الكلام حتى قوله لا يوزن. وبقية الكلام مختلف وليس فيه إشارة إلى نبوة محمد (ص) ووردت بكاملها فى هامش باب تزويج خديجة . سيرة ابن هشام تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

وروى البخارى فى تاريخه عن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه أن قريشاً قالت لأبى طالب رضى الله عنه إن ابن أخيك هذا قد آذانا.

فقال للنبي (ص) إن بنى عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم.

فقال لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمد حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ثم استعبر رسول الله (ص) باكياً فقال أبو طالب يا ابن أخى قل ما أحببت فقال الله به وسلمك لهم أبداً.

وقال لقريش، والله ما كذب ابن أخى قط^(٤).

فانظر إلى نفى الكذب عنه بالهلف بحضور خصمائه قريش وقد جاؤه يشكون إليه.

وانظر إلى قوله زعموا أنك تؤذيهم حيث لم يطلق القول بأنه يؤذيهم بل جعل ذلك اذى باعتبار زعمهم وانهم يزعمون أنه من قبل نفسه وليس من عند الله فقال إن كان اذى أى كما زعموا فانتته عن اذاهم فلما قال له إنه من عند الله ييقين كما أنكم على يقين من رؤية هذه الشمس صدقه ونفى عنه الكذب وقال الله ما كذب ابن أخى قط.

وقد روى أبو طالب أحاديث عن النبي وكلمات تدل على إيمانه وامتلاء قلبه من التوحيد.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ١. وتاريخ الطبرى ج ١.

فمن ذلك ما رواه الخطيب البغدادي بإسناده إلى جعفر الصادق عن أبيه محمدًا الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه على بن أبي طالب قال سمعت أبا طالب يقول حدثني محمدًا ابن أخى وكان والله صدوقًا قال: قلت له بم بعثت يا محمد؟ قال: بصلة الأرحام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة^(٥).

والمراد من الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها كانتا فى أوائل الإسلام أو المراد صلاة التهجد فإنه (ص) كان يفعله من أول بعثته.

ولا يصح حمل الصلاة على الصلوات الخمس لأنها إنما فرضت ليلة الإسراء وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو سنة ونصف وكان موت أبى طالب فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من البعثة وعمره بضع وثمانون سنة.

والمراد من الزكاة مطلق الصدقة وإكرام الضيف وحمل الكل ونحو ذلك من الصدقات المالية.

ومثل هذه الأشياء كان أبو طالب أسها ومعدنها.

وليس المراد الزكاة الشرعية المعروفة ولا زكاة الفطر لأن ذلك إنما فرض بعد الهجرة فى المدينة وكل ذلك كان بعد موت أبى طالب.

وأخرج الخطيب أيضًا بسنده إلى أبى رافع مولى أم هانئ بنت أبى طالب أنه سمع أبا طالب يقول حدثني محمدًا ابن أخى أن الله أمره بصلة الأرحام وأن يعبد الله لا يعبد معه أحدًا. قال ومحمد عندى الصدوق الأمين.

(٥) انظر تاريخ بغداد وهذا الإسناد خاص بآل البيت.

وقال أيضاً سمعت ابن أخى يقول أشكر ترزق ولا تكفر تعذب.

وأخرج ابن سعد والخطيب وابن عساكر عن عمرو بن سعيد أن أبا طالب قال كنت بذى المجاز مع ابن أخى فأدركنى العطش فشكوت إليه ولا أرى عنده شيئاً قال فثنى وركه ثم نزل فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء فقال اشرب يا عم فشربت^(٦).

قال البرزنجى فلو لم يكن موحداً لما رزقه الله الماء الذى نبع للنبي (ص) الذى هو افضل من ماء الكوثر ومن ماء زمزم.

وقال: الذى يرى مثل هذه المعجزة كيف لا يقع التصديق فى قلبه وقد كثرت القرائن الدالة على التصديق.

وأخرج ابن عدى عن أنس بن مالك قال مرض أبو طالب فعاده النبي فقال يا ابن أخى ادع الله أن يعافينى فقال اللهم اشف عمى فقام كأنما نشط من عقال.

وأخرج أبو نعيم من طريق أبى بكر بن عبد الله بن الجهم عن أبيه عن جده قال سمعت أبا طالب يحدث عن عبدالمطلب إنه رأى فى منامه أن شجرة نبتت من ظهره قد نال رأسها السماء وضربت أغصانها المشرق والمغرب قال وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً.

ورأيت العرب والعجم ساجدين وهى تزدد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تظهر.

(٦) صفة الصفوة، ج ١/ ٤٠ وطبقات ابن سعد، ج ١ / باب ذكر علامات النبوة فى رسول الله قبل أن يوحى إليه. وانظر تاريخ بغداد وتاريخ دمشق.

ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها وقوماً من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أرقط أحسن منه وجهاً ولا أطيّب ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم فرفعت يدي لأتناول نصيباً فلم أنل.

فقلت لمن النصيب؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها.

فانتبهت مذعوراً فأتيت كاهنة لقريش فأخبرتها فرأيت وجه الكاهنة قد تغير. ثم قالت لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس.

فقال عبدالمطلب لأبى طالب لعلك أن تكون هو المولود فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث والنبى (ص) قد بعث ويقول كانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين.

فيقال له الا تؤمن فيقول السبة والعار^(٧).

وإنما كان يقول ذلك تعمية وتستراً وإظهاراً لقريش إنه على دينهم ليتم له نصرة النبى وحمايته لأنهم حيث علموا أنه معهم وعلى دينهم يقبلون حمايته بخلاف ما لو أظهر لهم مخالفتهم واتباعه النبى (ص) فهذا هو العذر له فى قوله السبة والعار وفى بقائه ظاهراً على دينهم.

وأخرج ابن سعيد عن عبد الله بن ثعلب بن صغير العذرى إن أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا بنى عبدالمطلب فقال لئن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا.

قال البرزنجى قلت بعيد جدًا أن يعرف أن الرشاد فى اتباعه ويأمر غيره ثم يتركه هو.

وروى الحافظ ابن حجر فى الإصابة عن على رضى الله عنه أنه لما أسلم قال له أبو طالب الزم ابن عمك.

وأخرج أيضًا عن عمران بن حصين إن أبا طالب قال لابنه جعفر صل جناح ابن عمك فصلى جعفر مع النبى (ص) كما صلى على رضى الله عنه^(٨).

قال البرزنجى؛ فلولا إنه مصدق بدينه لما رضى لإبنيه أن يكونا معه وأن يصليا معه بل ولا كان يأمرهما بالصلاة فإن عداوة الدين أشد العداوات كما قيل؛

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك فى الدين

فهذه الأخبار كلها صريحة فى أن قلبه طافح ومعتلىء بالإيمان (ص).

ومن ذلك أيضًا إن أبا طالب سافر إلى الشام وكان عمر النبى (ص) إذ ذاك تسع سنين فصحبته معه فرآه بحيرا الراهب - بفتح الباء - ورأى فيه علامات النبوة فأخبر عمه أبا طالب وأمره بارجاعه إلى مكة مخافة عليه من اليهود فردّه إلى مكة^(٩).

ومن ذلك أيضًا ما شاهده أبو طالب فى زمن عبدالمطلب من استسقاءه بالنبى (ص).

(٨) انظر ترجمة الإمام على فى ج ٢. وانظر ترجمة جعفر فى ج ١ ترجمة رقم ١١٦٦.

(٩) انظر قصة بحيرا الراهب فى سيرة ابن هشام ج ١ وطبقات ابن سعد ج ١ وكتب التاريخ .

فقد روى الخطابي أن قريشاً تتابعت عليهم سنوجدب في حياة عبدالمطلب فارتقى هو ومن حضر معه من قريش أبا قبيس بعد أن استلموا ركن البيت فقام عبدالمطلب واعتضد النبي (ص) فرقه على عاتقه وهو يومئذ غلام ثم دعا فسقوا في الحال.

واستسقى به أبو طالب أيضاً بعد وفاة عبدالمطلب حين أصاب أهل مكة قحط شديد فأتوا أبا طالب فقالوا له قد أقحط الوادي وأجذب العيال فهلم فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه النبي (ص) وهو غلام فأخذه أبو طالب فألصقه بالكعبة ولاذ الغلام أى أشار بإصبعيه إلى السماء كالملتجئ وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأمطرت السماء واغدق الوادي وكثر قطره وأخصب النادى والبادى.

وفى هذه يقول أبو طالب بعد بعثه النبي يذكر قريشاً يده (ص) وبركته عليهم من صغره:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهالك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل^(١٠)

فهذه الآثار والأخبار كلها صريحة فى أن أبا طالب رأى من الآيات والمعجزات وخوارق العادات التى ظهرت للنبي (ص) ما أوجب أن يصدقه ويؤمن به إيماناً لا شك فيه ولا تردد.

ورأى أبو طالب أيضاً للنبي (ص) آيات وخوارق عادات فى صغره غير هذه وذلك أن أبا طالب كان قليل المال وكان ذا عيال فكان عياله إذا أكلوا وحدهم جميعاً أو فرادى

(١٠) البيت الأول ذكره ابن هشام بعد حديث استسقاء رسول الله لأهل المدينة والبيتين ذكرنا قبل ذلك فى قصيدة طويلة لأبى طالب مع اختلاف كلمة رحمه بدل نعمة فى البيت الثانى.

لم يشبعوا وإذا اكل معهم النبى (ص) شبعوا فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم يقول لهم انتم كما انتم حتى يأتى ابنى فيأتى رسول الله فيأكل معهم فيشبعون فيفضلون من طعامهم وإذا كان طعامهم لبنا شرب رسول الله أولهم ثم تناول العيال القدح من الخشب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم أى جميعهم من القدح وإن كان أحدهم وحده يشرب قدحاً واحداً وحده فيقول أبو طالب للنبى (ص) إنك لمبارك^(١١).

وأخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان أبو طالب يحب النبى (ص) حباً شديداً لا يحب أولاده مثله ولذا لا ينام إلا جنبه ويخرجه معه حين يخرج.

وكان النبى (ص) يحب أيضاً أبا طالب حباً شديداً ولا يأوى إلا إليه ولا يطمئن قلبه إلا باتصاله به وكان (ص) يقول لما مات أبو طالب: نالت قريش منى من الأذى ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب.

وقال أيضاً: ما نالت قريش منى شيئاً أكره حتى مات أبو طالب.

ولما رأى قريشاً تهجموا على أذيته قال يا عم ما أسرع ما وجدت بعدك.

ومات أبو طالب وخديجة فى عام واحد فكان رسول الله (ص) يسمى ذلك العام عام الحزن^(١٢).

(١١) انظر طبقات ابن سعد .

(١٢) انظر سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ سنة وفاة أبى طالب عام الحزن.

ولما ظهر امر النبى (ص) وصار يدخل فى دينه كثير من الناس اجتمع كفار قريش على قتل رسول الله .

وقالوا قد افسد علينا ابناؤنا ونساءنا .

وقالوا لبني هاشم خذوا هذه دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحوا انفسكم .

فأبى بنو هاشم . فعند ذلك اجتمع راي قريش على منابذة بنى هاشم وبني المطالب وإخراجهم إلى شعب أبى طالب والتضييق عليهم بالمنع من حضور الأسواق وأن لا يناكحوهم وأن لا يقبلوا لهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة^(١٣) .

وقيل إن أبى طالب لما راي اجتماع قريش على قتل النبى (ص) جمع بنى هاشم وبني المطالب مؤمنهم وكافرهم وأمرهم أن يدخلوا برسول الله الشعب ويمنعوه ففعلوا ولم يتخلف عنهم إلا أبو لهب .

فلما علمت قريش ذلك اجمع رايهم على أن يكتبوا عهداً ومواثيق على أن لا يجالسوهم ولا يناكحوهم ولا يقبلوا لهم صلحاً أبداً وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى الكعبة .

(١٣) انظر قصة حصار قريش لبني هاشم فى الشعب وقصة الصحيفة فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ .

ومكث بدو هاشم فى الشعب ثلاث سنين وقيل سنتين وأصابهم ضيق شديد حتى
أكلوا ورق الشجر يتقوتون به.

وكان أبو طالب فى تلك المدة يتحفظ غاية التحفظ على النبى (ص) حتى أنه إذا
جاء الليل وأراد النبى أن ينام يفرش له فراش فى الموضع الذى يعتاد أن ينام فيه
فيضطجع فيه النبى ثم يقيمه عمه عن فراشه المعتاد ويأمر بعض بنيه أن ينام فى ذلك
الموضع ويفرش للنبى فى موضع آخر غير معتاد نومه فيدعه ينام فيه كل ذلك مبالغة
فى حفظه وحراسته.

والذى كتب الصحيفة لقريش شلت يده وأوحى الله تعالى للنبى (ص) أنه سبحانه
وتعالى سلب الأرضة على صحيفتهم التى كتبوها وعلقوها فى الكعبة فأكلت ما فيها من
عهد وميثاق وقطيعة رحم ولم يبق فى الصحيفة غير اسم الله عز وجل فإنهم كانوا
يكتبون باسمك اللهم.

فأخبر النبى عمه أبا طالب بذلك فخرج من الشعب حتى أتى المسجد فاجتمع
عليه قريش وظنوا أنه يريد أن يسلمهم النبى ليقتلوه.

فقالوا له توبخا له ولمن معه قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى
أنفسكم.

فقال أبو طالب إنما أتيتكم فى أمر نصف بيننا وبينكم - أى أمر وسط - لا حيف
فيه علينا ولا عليكم إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى قط أن الله تعالى قد سلب على
صحيفتكم التى كتبتم الأرضة فاحسست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم

وبقى بها كل ما ذكر به الله تعالى فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا - فى رواية -
نزعتهم أى رجعتهم عن سوء رأيكم وإن لم ترجعوا فو الله لا نسلمه حتى نموت من عند
آخرنا.

وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتهم أو استحييتهم.

فقالوا قد رضينا بالذى تقول.

وفى رواية أنصفتنا فأخرجوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق
المصدوق (ص).

فلما رأت قریش صدق ما جاء به أبو طالب قالوا أى قال أكثرهم هذا سحر ابن
أخيك وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.

وبعضهم ندم وقال هذا بغى منا على إخواننا وظلم.

فقال لهم أبو طالب بعد أن وجد الأمر كما أخبر (ص) يا معشر قریش علام
نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين إنكم أولى بالظلم والإساءة والقطيعة.

ودخل أبو طالب ومن معه تحت أستار الكعبة وقالوا اللهم انصرنا على من ظلمنا
وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ثم انصرفوا إلى الشعب.

وعند ذلك مشى طائفة منهم فى نقض الصحيفة وإبطال ذلك الحصار^(١٤).

(١٤) انظر طبقات ابن سعد ج ١ / باب ذكر حصر قریش رسول الله (ص) وبني هاشم فى الشعب.
وانظر سيرة ابن هشام ج ١ / باب خبر الصحيفة وباب حديث نقض الصحيفة.

والكلام على ذلك طويل وإنما القصد بيان أن أبا طالب أطلعه الله على كثير مما خص الله نبيه به من الآيات والمعجزات وخوارق العادات من مبتدأ أمره (ص) وهو صغير إلى منتهاه وباطلاعه على تلك الآيات والمعجزات صار قلبه مشحوناً ممتلئاً بالإيمان والتصديق بالنبي (ص) إيماناً قطعياً لا شك فيه ولا شبهة ولم يظهر ذلك الإيمان ويتابعه ظاهراً مبالغة فى حفظ النبي وحمايته وصيانتته عما يؤذيه فكان يظهر لقريش أنه على ملتهم ودينهم فلا يستطيعون مخالفته.

فمن عرف ذلك وقف على باطن الأمر وحقيقته. ولم يشك فى إيمان أبى طالب فكان فى نصرة النبي يخادع قريشاً مخادعة الحرب حتى تم أمر النبي (ص) وفشت دعوته.

الباب الثالث: شعر أبي طالب

وقد صرح بالتصديق بنبوة النبى (ص) فى كثير من اشعاره وكان فى بعض تلك الأشعار يأتى بالفاظ توهم على قريش أنه معهم وأنه على ملتهم كل ذلك مخادعة لهم للمبالغة فى حفظ النبى وحمايته فمن اشعاره التى دلت على تصديقه بنبوة النبى (ص) ما تقدم من قوله:

الم تعلموا أنا وجدنا محمداً رسولاً كموسى صح ذلك فى الكتب

وهذا البيت من قصيدة طويلة لأبى طالب قالها فى زمن محاصرة قريش لهم فى الشعب وهى قصيدة طويلة بليغة غراء تدل على غاية محبته للنبى وعلى التصديق بنبوته وشدة حمايته له والذب عنه ومطلعها:

الا بلغا عنى على ذات بيننا لؤيساً وخصاً من لؤى بنى كعب
الم تعلموا أنا وجدنا محمداً رسولاً كموسى صح ذلك فى الكتب

ويروى نبياً كموسى خط ذلك فى الكتب.

وإن عليه فى العباد مودة ولا خير ممن خصه الله بالحب

ومنها:

فلسنا ورب البيت نسلم أحمداً لعزاء من عض الزمان ولا كرب^(١)

ومن شعره قوله:

(١) انظر ابن هشام ج/ ١ باب خبر الصحيفة.

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

هكذا نسب الحافظ بن حجر فى الإصابة هذا البيت لأبى طالب وقيل إنه لحسان ابن ثابت الأنصارى.

قال البرزنجى: ولا مانع أن يكون لأبى طالب وأخذه حسان فضمنه شعره.

واجتمع مرة كفار قريش وجاؤا أبا طالب ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان من أحسن فتيان قريش وقالوا لأبى طالب خذ هذا بدل محمد يكون كالأبن لك واعطنا محمداً نقتله.

فقال ما أنصفتمونى يا معشر قريش آخذ ابنكم أربيه وأعطىكم ابنى تقتلونه ثم قال،

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وابشر بذالك وقر منك عيونا
ودعوتنى وعلمت أنك صادق	ولقد صدقت وكنت ثم امينا
ولقد علمت بأن دين محمد	من خير اديان البرية دينا ^(٢)

وزاد بعضهم بعد هذا:

(٢) انظر النص فى سيرة ابن هشام دون الأبيات المذكورة باب الجهر بالدعوة ج/ ١ .
ووردت الأبيات فى نص ابن إسحاق باب ما نال اصحاب رسول الله (ص) من البلاء والجهد.
مع اختلاف فى بعض الكلمات.

لولا المسبة او حذار ملامه لوجدتنى سمحا بذاك مبينا^(٣)

فقل إن البيت موضوع ادخلوه فى شعر أبى طالب وليس من كلامه وقيل أنه من كلامه وأتى به للتعمية على قريش ليؤهم عليهم أنه معهم وعلى ملتهم ولم يتابع محمداً ليقبلوا حمايته ويمثلوا أمره.

ومن شعره قوله فى النبى (ص):

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

وهذان البيتان من قصيدة طويلة لأبى طالب قيل إنها ثمانون بيتاً أفرد لها بعض العلماء شرحاً مستقلاً وقيل إنها تزيد على مائة بيت قالها أبو طالب حين حصر قريش لهم فى الشعب وأخبر قريشاً أنه غير مسلم محمداً رسول الله (ص) لأحد أبداً حتى يهلك دونه ومدحه فيها مدحاً بليغاً وأتى فيها بكلام صريح فى أنه مصدق بنبوته ومؤمن به فمنها البيتان السابقان ومنها قوله:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد وأحبيته حب المحب المواصل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعزى لقول الأباطل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عاقل غير طائش يوالى إلهاً ليس عنه بغافل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة تقصر عنها سورة المتطاول
حدثت بنفس دونه رحميته ودافعت عنه بالذرا والكلال^(٤)

(٣) هذه الزيادة وردت فى نص ابن إسحاق.

(٤) انظر سيرة ابن هشام وهذه الأبيات منتقاة من قصيدة طويلة لأبى طالب.

وفى القصيدة أبيات كثيرة مثل هذه فى المعنى والبلاغة.

قال ابن كثير أن هذه القصيدة بليغة جدا لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه وهى أفحل من المعلقات السبع وأبلغ فى تأدية المعنى (٥).

وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال جاء أعرابى إلى النبى (ص) وشكا الجذب والقحط وأنشد أبياتا فقام رسول الله (ص) حتى صعد المنبر فرفع يديه إلى السماء ودعا فما رد يديه حتى التقت السماء بأبرقها ثم بعد ذلك جاؤا يضحجون من كثرة المطر خوف الغرق فقال اللهم حوالينا ولا علينا وضحك (ص) حتى بدت نواجذه ثم قال لله در أبى طالب لو كان حيا لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟

فقال على رضى الله عنه وكرم وجهه كأنك تريد قوله؛

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال (ص) أجل (٦).

قال البرزنجى؛ فقول النبى (ص) لله در أى طالب يشهد له بأنه لو رأى النبى وهو يستسقى على المنبر لسره ذلك ولقرت عيناه فهذا من النبى شهادة لأبى طالب بعد موته أنه كان يفرح بكلمات النبى وتقر عينه بها وما ذلك إلا لسر وقر فى قلبه من تصديقه بنبوته وعلمه بكمالاته.

(٥) البداية والنهاية، ج ١.

(٦) انظر دلائل النبوة وجاء نص هذا الحديث فى سيرة ابن هشام أيضا غير أنه لم يشر إلى ذكر على فيه .

ثم قال البرزنجى: فتأمل هذه المعانى الدقيقة ولا تكن ممن استحقها لحقارة قائلها وفوق كل ذى علم عليم.

ومن غرر مدائح ابى طالب للنبي (ص) الدالة على تصديقه إياه قوله:

إذا أجمعت يوما قريش لفخر فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أنساب عبد منافها ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمداً هو المصطفى من سرها وكريمها

وهذا موافق لقوله (ص) واصطفانى من بنى هاشم^(٧).

قال البرزنجى: وهذا نطق بالوحي قبل صدوره من النبي فإنه أخبر بذلك بعد مدة من قول أبى طالب.

والحديث وحى كالقرآن فثبت بهذه الأخبار والأشعار أن أبى طالب كان مصدقا بنبوة النبي وذلك كاف فى نجاته.

قال القرافى فى شرح التنقيح عند قول أبى طالب:

وقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعزى لقول الأباطل

(٧) جاءت هذه الأبيات فى سيرة ابن هشام. أما حديث الاصطفاء فنصه: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم. رواه مسلم كتاب الفضائل. باب فضل نسب النبي (ص).

إن هذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان وإن أبى طالب ممن آمن بظاهره وباطنه غير أنه كفر ظاهراً ولم يدعن للفروع.

وكان يقول إنى لأعلم أن ما يقول ابن أخى حق ولولا إنى أخاف أن تعيرنى نساء قريش لاتبعته أهـ.

وإجيب كما مر بأنه لم يدعن ظاهراً خوفاً من أن قريشاً لا تقبل حمايته.

وقوله لولا إنى أخاف أن تعيرنى نساء قريش إنما قال ذلك تعمية على قريش ليوهم عليهم أنه على دينهم وهذا عذر صحيح بلغ به تمكين النبى (ص) فى نبوته والدعوة إلى ربه.

وجاء فى مسلم أنه يقال للنبى (ص) يوم القيامة اخرج من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان^(٨).

فهذا الحديث وغيره مما يماثله من الأحاديث كلها تدل بظاهرها على أن النطق بالشهادتين ليس شرطاً فى النجاة بل ولا دخل له فيها وإلا لما كان قائلها نفاقاً فى الدرك الأسفل من النار.

(٨) مسلم كتاب الإيمان باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار وليس هذا نصه. فقد ورد كما يلى: يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته ويدخل أهل النار النار ثم يقول: انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه.

الباب الرابع: أبو طالب والشفاعة

قال البرزنجى؛ وهذا الذى اخترناه من كون نجاة أبى طالب لما كان عنده من التصديق الكافى فى النجاة فى الآخرة هو طريق المتكلمين من أئمتنا الأشاعرة وهو ما دلت عليه أحاديث الشفاعة وأحاديث الشفاعة كثيرة وكلها فيها التصريح بأنها لا تنال مشركا وقد نالت الشفاعة أبا طالب كما سيأتى بيانه فدل ذلك على عدم إشراكه.

ثم ذكر البرزنجى الدلائل التى تمسك بها القائلون بعدم نجاته وقلب استدلالهم بها على عدم النجاة وجعلها دالة على النجاة.

فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه عم النبى (ص) أنه قال لرسول الله (ص) أن أبا طالب كان يحوطك أى يحفظك وينصرك ويغضب لك فهل ينفعه ذلك.

قال نعم وجدته فى غمرات من النار.

أى مشرفا عليها كما سيأتى تفسيره.

وفى رواية؛ وكان فى غمرات من النار أى مشرفا عليها فأخرجته إلى ضحضاح ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار^(١).

والضحضاح مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين فاستعير للنار.

(١) البخارى فى كتاب مناقب الأنصار باب قصة أبى طالب. ومسلم كتاب الإيمان باب شفاعاة النبى (ص) لأبى طالب.

وفي رواية للبخاري ومسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه (ص) ذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تناله شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منها دماغه^(٢).

وروى مسلم وغيره عنه (ص) أن أبا طالب أهون أهل النار عذابا^(٣).

قال القائلون بعدم نجاته أن هذه الأحاديث الصحيحة دالة على كفره وعلى أنه في النار فلا يمكن القول بنجاته لأن النبي (ص) أخبر بحاله فيما بينه وبين الله في الدار الآخرة فدل أنه لم يكن مصدقا بقلبه وأما ما صدر منه من نصرة النبي (ص) فإنما كان من باب حمية العرب والأنفة من أن يغتال ابنه من بين يديه وقد كلفه بذلك عبدالمطلب.

ثم قال البرزنجي: قلت الجواب إن نفس الأحاديث التي ذكرت تدل على نجاته وذلك أن الله تعالى قد أخبر عن الكفار بأنهم لا يخفف عنهم من عذابها وبأنهم لا يفتر عنهم وبأنهم ما هم منها بمخرجين وبأنهم لا تنفعهم شفاعاة الشافعين إلى غير ذلك.

وقد ثبت في الأثر الصحيح أن الجحيم هي الطبقة التي يعذب فيها عصاة المؤمنين ثم يخرجون منها وهي أعلى طبقات النار وعصاة المؤمنين عذابهم أخف من عذاب الكفار.

(٢) البخاري كتاب مناقب الأنصار. ومسلم كتاب الإيمان وانظر طبقات ابن سعد ج ١ باب ذكر أبي طالب.

(٣) كتاب الإيمان باب أهون أهل النار عذابا.

وحيث صح إن أبا طالب أهون أهل النار عذابًا على الإطلاق فيكون أهون عذابًا حتى من عصاة المؤمنين ولو لم نقل بذلك لما صدق قوله (ص)، إنه أهون أهل النار عذابًا.

ولو فرض أنه كافر يخلد فى النار وهو أهون أهل النار عذابًا لكان عذاب الكفر أهون من عذاب بعض المؤمنين العصاة وهذا لا يقول به أحد.

فثبت أن عذابه أهون من عصاة المؤمنين.

وثبت أنه تنفعه شفاععة النبى (ص) ولهذا خفف عنه العذاب وجعل أخف أهل النار عذابًا فأخرج من طمطام النار وغمراتها أى أبعد عما كان مشرفًا على دخوله لولا النبى (ص) إلى ضحضاح منها والبس نعلين من النار فصارت لا تغلى ظهور رجليه وهذه هى أعلى النار لا أعلى منها بحيث أن النار ما مست إلا تحت قدميه وليس ذلك إلا فى الطبقة الفوقانية التى مكان عصاة هذه الأمة.

وقد صحت الأحاديث بأنهم يخرجون منها بحيث لا يبقى فيها من كان فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان^(٤).

وقد صح أيضًا أن هذه الطبقة بعدما يخرج منها عصاة هذه الأمة تنطفى نارها وتصفق الريح أبوابها وينبت فيها الجرجير ولا يجوز أن ينبت فيها الجرجير وفيها نار تمس تحت القدم فوجب أن يخرج منها أبو طالب بهذه الأدلة وكلها صحيحة.

(٤) انظر مسلم كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجًا. والبخارى كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار وكتاب التوحيد وسنن البيهقى ومسند أحمد وانظر أبواب الشفاعة فى كتب العقائد.

ثم قال البرزنجى : ونقول ورد فى الصحيح انه (ص) قال شفاعتى لأهل الكبائر^(٥).

وفى لفظ: لمن لم يشرك بالله شيئاً. واللام للاختصاص مثل الحمد لله.

ومعناه شفاعتى مختصة بأهل الكبائر وحيث كانت مختصة بأهل الكبائر فهى لا تكون لمشرك يعنى أن الشفاعة التى لغضران الذنوب تختص بأهل الكبائر فإن الصغائر يكفرها اجتناب الكبائر.

والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين لأن الله لا يغفر أن يشرك به وإذا لم يغفر لم يدخل تحت الشفاعة لأن كل عذاب فى مقابلة ذنب ما لم يغفر ذلك الذنب لا يرفع عنه العذاب الذى فى مقابلته وإذا لم يغفر الشرك صدق أن لا تنفعه شفاعة الشافعين.

والشافعين جمع محلى باللام فيفيد العموم لجميع الشافعين فتدخل شفاعته (ص) فإنها لا تنفع الكافرين كما لا تنفعهم شفاعة غيره.

وأبو طالب قد نفعته شفاعة النبى (ص) فخفف عنه العذاب واخرج من غمرات النار إلى ضحضاح النار بشفاعة النبى (ص) فوجب أن يكون من أهل الكبائر ما عدا الكفر ووجب أن يخرج من النار لأنه صار من عصاة الأمة الذين هم فى الطبقة العليا وكل من كان كذلك يخرج ويدخل الجنة وهذا معنى قوله (ص) أرجو له من ربى كل خير.

(٥) رواه احمد والبيهقى. والبخارى فى كتاب التوحيد.

وهذا الحديث أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأل رسول الله (ص) ما ترجو لأبى طالب قال كل الخير أرجو من ربى^(٦).

ولا يرجى كل الخير إلا للمؤمن ولا يجوز أنه يراد بهذا ما حصل من تخفيف العذاب فإنه ليس خيراً فضلاً عن أن يكون كل الخير وإنما هو تخفيف الشر وبعض الشر أهون من بعض والخير كل الخير دخول الجنة.

وأخرج تمام الرازى فى فوائده بسند يعتد به فى المناقب عن ابن عمر قال. قال رسول الله (ص) إذا كان يوم القيامة شفعت لأبى وامى وعمى أبى طالب واخ لى كان فى الجاهلية.

أورده المحب الطبرى فى كتابه ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى.

وأخرجه أبو نعيم وصرح بأن الأخ كان من الرضاع.

قال البرزنجى: إن النار اسم للطبقات كلها وقد أخبر (ص) أن أبا طالب أخف أهل النار عذاباً على الإطلاق وبين وجه ذلك بأن النار لا تمس إلا تحت قدميه.

فلا يجوز أن يكون كافراً لأن فى المؤمنين من صح الأخبار عنهم فى ذنب واحد من الغلول أو العقوق أو تعذيب الهرة أو التبخر بعذاب أكبر من هذا.

فقد جاء فىمن غل من الغنيمة شملة صغيرة أنها تلتهب عليه ناراً.

(٦) انظر طبقات ابن سعد باب ذكر أبى طالب وتاريخ دمشق لابن عساكر.

وفيمن غل برده من صوف أنه جعل له درع مثلها من نار وأن من جاء بريثا من الغلول دخل الجنة.

وجاء أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر^(٧).

وذكر فى بعض الأحاديث بعد الشرك بالله وفى القرآن «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً» وصح ثلاثة لا ينفع معهن عمل الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف^(٨).

وصح أيضاً لا ينظر الله يوم القيامة لعاق والديه.

وصحت أحاديث كثيرة فى شدة عذاب العاق لوالديه وأنه آخر من يخرج من النار من العصاة.

وصح دخلت امرأة النار فى هرة.

أى بسبب حبسها هرة.

وصحت أحاديث كثيرة فى النهى عن التبخر وشدة العذاب لمن تبخروا.

(٧) انظر البخارى ومسلم كتاب الأدب والبر والأنبياء واللباس والجهاد وكتب السنن الأخرى. وروى مسلم عن الرسول (ص) قوله: اجتنبوا الموبقات السبع، الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق واكل مال اليتيم واكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. كتاب الإيمان باب بيان الكبائر.

(٨) روى مسلم فى كتاب الإيمان عن ارسول قوله: «الا أنباكم باكبى الكبائر ثلاثا، الإشارك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور. باب بيان الكبائر.

ولو كان أبو طالب كافرًا لكان عذاب الكفر دون عذاب الكبائر مع أن عذاب الكفر فوق عذاب الكبائر قطعًا وهذا لاشك فيه فإن الكفر أكبر الكبائر ولا يغفر بخلاف بقية الكبائر ولو وجد مؤمن عاص أخف عذابًا من أبى طالب لزم الخلف فى قول الصادق (ص) حيث جعله أخف أهل النار عذابًا على الإطلاق.

فوجب أن يكون عذابه كعذاب عصاة المؤمنين بل يكون أخف العصاة عذابًا وهذا العذاب فى مقابلة كبيرة هى ترك النطق بالشهادة إن قلنا أنه لم ينطق بها وإن ترك النطق بها معصية من كبائر المعاصى وإن عذره فى ترك النطق بها لا يمنع من صحة الإيمان لكنه لا ينفى كون ذلك الترك معصية أو نطق بها ولم يسمعها النبى (ص) فلم يعتد بها فكأنه ما نطق بها.

وذلك أن النبى (ص) حضر أبا طالب عند الموت وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية المخزومى.

فقال له النبى: أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب اترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزلوا يردانه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله^(٩).

وفى رواية فلما رأى أبو طالب حرص رسول الله (ص) على إيمانه قال يا ابن أخى لولا مخافة قريش إنى إنما قتلتها جزعًا من الموت لقلتها^(١٠).

وفى رواية لما تقارب من أبى طالب الموت نظر إليه العباس فرآه يحرك شفثيه --

(٩) انظر طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ومسلم كتاب الإيمان باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله.

(١٠) المرجعين السابقين وانظر مسلم.

فاصغى إليه بإذنه فسمع منه الشهادة فقال للنبي (ص): يا ابن أخى والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته بها.

ولم يصرح العباس بلفظ لا إله إلا الله لكونه لم يكن أسلم حينئذ.

فقال رسول الله لم أسمع^(١١).

وهذا معنى قولهم أنه (ص) لم يعتد بها فكأنه لم ينطق بها.

والقائلون بعدم نجاته لم يأخذوا بهذا الحديث لكون العباس شهد بها حال كفره قبل أن يسلم.

وبعضهم ضعف هذا الحديث.

فعلى تسليم عدم الاعتداد بنطقه هذا وإن الحديث ضعيف فنقول: هو كافر باعتبار احكام الدنيا وأما عند الله فهو مؤمن ناج ممتلىء قلبه إيماناً بدليل ما تقدم عنه.

مما يدل على ذلك أنه يمكن أن عدم نطقه بحضرة أبى جهل وعبدالله بن أمية حرصاً منه على بقاء الحفظ للنبي (ص) وصيانتاً من أذيتهم له بعد وفاته لأنه كان يرى أنه إذا أظهر لهم أنه على دينهم تبقى حرمة وتعظيمه عندهم بعد وفاته فلا ينال النبي (ص) منهم أذى.

(١١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ وفاة خديجة وأبى طالب.

وإذا كان هذا قصده كان معذوراً فتكون إجابته لهما بما أجابهم به مداراة لهما
لئلا ينفرهما خشية أن يؤذوا رسول الله (ص) بعد وفاته.

على أنه يمكن الجمع بين امتناعه ونطقه بأنه امتنع بحضورهما مداراة لهما فلما
انطلقا وذهبا نطق بها وأصغى إليه العباس فسمعه ينطق بها.

ولهذا قال فى الحديث السابق ما كلمهم به - يعنى أبا جهل ومن كان معه - ولم
يقل آخر ما تكلم به مطلقاً فدل على أن قوله هو على ملة عبد المطلب دليل على أنه
على التوحيد لأن عبد المطلب كان على التوحيد كبقية آبائه (ص) كما حقق ذلك الجلال
السيوطى وغيره فى رسائل متعددة^(١٢).

فأبهم ابوطالب عليهم الجواب ليرضيهم ظاهراً وهو يعلم أن عبد المطلب كان على
التوحيد.

وأخرج ابن عساكر عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله (ص) يقول إز
لأبى طالب عندى رجا سألها ببلالها.

والقائلون بعدم نجاته يقولون أن حديث البخارى ومسلم الذى فيه كان فى غمرات
من النار يدفع إيمانه وأن هذا شأن من مات على الكفر.

قال البرزنجى: قلنا ليس من شأن من مات على الكفر يكون فى الضحضاح من
النار بل شأنه أن يكون فى الدرك الأسفل من النار فقبول الشفاعة فيه حتى صار فى

(١٢) رسائل السيوطى طبع بيروت ومنها رسالة فى إيمان السيدة آمنة ورسالة فى أن أبوى المصطفى
فى الجنة.

ضحضاح دليل على عدم كضره إذ لا تقبل فى الكافر شفاعة الشافعين.

وقوله (ص) لولا انا كان فى الدرك الأسفل من النار. معناه لولا أن الله هداه بى للإيمان لمات كافراً وكان فى الدرك الأسفل من النار فهو نظير قوله (ص) فى ولد اليهودى الذى زاره فى مرضه وعرض عليه الإسلام فأسلم ومات، الحمد لله الذى أنقذه بى من النار.

وحينئذ ظهر لنا معنى لطيف فى هذا الحديث الآخر الذى كان فى غمرات من النار فشفعت له فأخرج إلى ضحضاح منها وهو أن المعنى كان مشرفاً على دخول الغمرات حيث أبى أن يشهد ثم تشفعت فيه فهداه الله للإيمان.

ولا ينافى هذا قوله أنا لم اسمع لجواز أن الله أخبره بعد ذلك.

وقوله تعالى «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [القصص: ٥٦].

وإن نزلت فى أبى طالب فنزولها فيه لا ينافى أن الله هو الذى هداه بعد أن ايس النبى منه^(١٢).

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن على رضى الله عنه قال، أخبرت النبى (ص) بموت أبى طالب فبكى وقال اذهب فغسله وكفنه واره غفر الله له ورحمه ففعلت.

وإنما ترك النبى (ص) المشى فى جنازته اتقاء من شر سفهاء قريش وعدم صلاته لعدم مشروعية صلاة الجنازة يومئذ.

(١٢) هذا على فرض التسليم بسبب النزول.

وقد ذكر أهل السير أنه لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله (ص) من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً فدخل (ص) بيته والتراب على رأسه.

فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تزيل عنه التراب وهي تبكي.

ورسول الله (ص) يقول: لا تبكي يابنية فإن الله مانع أبائك^(١٤).

وقال: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

ويؤيد استعجال آذاهم له أنهم قاموا من عند أبي طالب مغضبين حاقدين على رسول الله حيث كان يكرر على أبي طالب النطق بالشهادتين.

ولما رأى رسول الله (ص) قريشاً تهجموا على أذيته قال ياعم ما أسرع ما وجدت فقدك.

وجاء في رواية البيهقي أن علياً رضي الله عنه لما مات أبو طالب قال: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات.

قال: اذهب فواره. قلت: أنه مات مشركاً.

قال: اذهب فواره.

(١٤) انظر سيرة ابن هشام ج ٢.

فلما وارىته رجعت إلى النبى (ص) فقال اغتسل^(١٥).

فقوله إن عمك الشيخ الضال قد مات مخالف للحديث السابق^(١٦).

واجيب بأن هذا منظور فيه إلى ظاهر حاله فى الدنيا ولعل علينا رضى الله عنه قال ذلك بحضور سفهاء المشركين مداراة لهم فلا ينافى الحديث السابق المنظور فيه إلى باطن الحال وحقيقة نفس الأمر وهو إيمانه وتصديقه.

(١٥) رواه ابن سعد فى الطبقات أيضا.

(١٦) تأمل تعبير الشيخ الضال وعلى لسان الإمام على تجده تفوح منه رائحة السياسة.

الباب الخامس: نجاه أبى طالب

والحاصل انه يصح الاخبار عنه بالكفر بالنظر لظاهر الحال واحكام الدنيا فلا ينافى انه مؤمن باعتبار باطن الأمر وما عند الله بدليل البراهين السابقة الدالة على إيمانه وتصديقه.

قال البرزنجى : إن اعتمادنا فى نجاته على المسلك الأول كاف فى النجاة ولا نحتاج إلى غيره لكن ذكرناه زيادة تأكيد للمدعى.

وقد استدل أيضًا للنجاة بقوله تعالى «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون» الأعراف / ١٥٧ .

وقد صدقه أبو طالب ونصره بما اشتهر وعلم وناشد قريشًا بسببه بما لا ينكره أحد من نقله الأخبار فيكون من المفلحين.

وقال القائلون بعدم النجاة إنه نصره لكنه لم يتبع النور الذى أنزل معه وهو الكتاب العزيز الداعى إلى التوحيد ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما رتب عليه من الصفات كلها .

قال البرزنجى: اقول إن أريد أصل النجاة من النار فهو إنما يترتب على الإيمان الذى هو التصديق عند المحققين وقد حصل له ذلك.

وإن أريد الفلاح التام فلا يلزم من عدمه حصول الكفر على أنا نقول قد اتبعه وأمر باتباعه لأن الظاهر من العواطف أى فى قوله «آمنوا به واتبعوا» كما هو الأصل فيه أن الاتباع غير الإيمان.

وإذا كان غيره فيحمل الإيمان على التصديق وهو حاصل وإنما كان الاتباع فيما كان شرع حينئذ ولم يكن إلا التوحيد وصلة الأرحام وترك عبادة الأصنام.

كما مر عن أبى طالب أنه سأل النبى (ص) بم بعثت فأخبره أنه بعث بصلة الأرحام وأن يعبد الله ولا يعبد معه غيره.

ولم يكن فى ذلك الوقت فرضت الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ولا الجهاد فلم يبق إلا قول لا إله إلا الله فإن اعتبر بما يؤدى التوحيد فقد مر أنه نطق بالوحدانية وبحقيقة الرسالة وتصديق النبى (ص) فى أشعاره.

وإنما طلب النبى (ص) ذلك منه عند وفاته ليحوز إيمان الوفاة وإن لم يعتد به عند الموت فتكون تلك قرائن دالة على أنه مصدقا بقلبه وإنما امتنع من النطق به خشية أن ينسبوه إلى الجزع من الموت.

والخوف من الموت عندهم عار وقد كانوا عريقين فى السيادة والمفاخرة بحيث لا يرضون أن ينسب إليهم أقل قليل مما يخالفها فلا يبعد أن يكون ذلك عندهم عظيما وذلك عذر.

وهذا بحسب ظاهر الأمر وأما فى باطن الأمر فالسبب الحقيقى فى عدم نطقه بحضور القوم المبالغة فى المحافظة على حماية النبى (ص) ونصرته لعلمه بأنه إذا نطق بذلك وعلموا أنه اتبع النبى لم يعتدوا بحمايته وجأهه عندهم بل يخفرون ذمته وينتهكون حرمة ويبالغون فى إيذاء النبى.

وقد كان أبو طالب حريصا على أن يكون أمر النبى (ص) فى دعوته الخلق إلى

الله تعالى باقياً بعد موته فلذلك كان محافظاً على بقاء حرمة في قلوب قريش فلو نطق بالشهادتين وعلموا ذلك منه فإنه يفوت غرضه من كمال النصرة والحماية.

ثم ذكر البرزنجي: احتمالات بسبب تعذيب أبى طالب مع عصاة المؤمنين غير النطق بالشهادتين.

فقال يحتمل ذلك لترك الصلاة التي كانت في أول الإسلام وهي ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي فإن أبى طالب طلب منه صلاة تينك الصلاتين فامتنع.

وكذا التهجد الذي كان يفعله (ص) في أول الإسلام فيحتمل أن امتناعه من ذلك كراهة أن يعلم قريش أنه اتبع النبي فلا يقبلون حمايته ولا يعملون بها فيكون امتناعه من تلك الصلاة مبالغة في التعمية على قريش ومبالغة في حماية النبي (ص) ونصرته فيكون ذلك عذراً لكنه لا يمنع كون الامتناع معصية يعاقب عليها.

وكان هو في الظاهر يعلل بغير ذلك فإنه لما طلب منه صلاة تلك الصلاة قال لا تعلوني أسى. فيكون ذلك الامتناع عناداً واستكباراً بحسب الظاهر فيعاقب عليه وإن كان مبالغة في التعمية على قريش ليوهمهم أنه معهم وعلى دينهم.

ويحتمل أن دخوله النار كان لبعض حقوق العباد التي كانت عليه بعد البعثة.

وقد ذكر البرزنجي في أول رسالته في مبحث نجات الأيوين نجات جميع الآباء وأنهم كانوا على التوحيد.

ثم قال في مبحث نجات أبى طالب لم ينقل عن أحد من أعمام النبي (ص) أنه قال

لم تسب آباءنا وتشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا كما قالت بقية قريش فلو عرفوا من آبائهم ذلك لقالوا اترك ذكر آبائك بسوء.

واما عداوة ابى لهب فكانت بسبب مصاهرة أبى سفيان فإن ابا لهب كان متزوجاً اخت أبى سفيان أم جميل وسميت فى الإسلام أم قبيح وهى حمالة الحطب فكان أبو لهب يهوى هواهم.

فالظاهر أن ابا طالب كان على ملة آبائه ولو عبد ابو طالب صنماً يلزم أن يكون اول من اشرك من هذه السلسلة الطاهرة.

ولم يثبت بطريق ثابت أن ابا طالب اول من أحدث الشرك وعبادة الأصنام من هذا النسب الطاهر والسلسلة المباركة.

والأصل عدم ذلك فهو تبع لعبد المطلب فى كل أحواله من مكارم الأخلاق وحماية الذمار والرياسة حتى خرج من الدنيا وهو على ملة عبدالمطلب.

وهذا هو الذى اشار إليه أبو طالب لما قال لكفار قريش هو على ملة عبدالمطلب فخاطبهم بكلام محمل صحيح يخرجهم عن الشك ويدخله فى زمرة الموحدين لما ستعمله من مناقب عبدالمطلب الدالة على أنه كان موحداً وعمى عليهم الأمر ليبقى جاهه وحمايته عندهم.

والحاصل إن الأحاديث التى فيها ذكر كفر أبى طالب ودخوله النار إنما هى بالنسبة للأحكام الدنيوية نظراً لظاهر الشرع وإن دخوله النار لأجل ترك التلطف

بالشهادتين أو لأجل ترك فرض من الفرائض أو لحق من حقوق العباد.

ولا يلزم من دخوله النار خلوده فيها وليس فى تلك الأحاديث نص على أنه يخلد فى النار وقد شفع النبى (ص) فى جعله فى ضحضاح ولو كان كافراً ما قبلت شفاعته فيه.

وصح أن اخف أهل النار عذاباً عصاة المؤمنين وإن أبى طالب اخف أهل النار عذاباً على الإطلاق فهو اخف حتى من عصاة المؤمنين.

وصح أن العصاة يخرجون من الجحيم وإن الريح تصفق أبوابها وينبت فيها الجرجير فيكون أبو طالب من المخرجين منها بل يكون أول المخرجين لأنه اخفهم عذاباً والكافرون ليسوا بمخرجين منها.

فثبت بهذه الأدلة أنه وإن عذب فى النار لا بد له من الخروج منها ودخول الجنة إذ لا واسطة بين الجنة والنار.

ثم قال: فإن قلت أثبت العلماء له (ص) نوعاً من الشفاعة للكفار وجعلوا ذلك خصوصية لنبينا ومثلوا ذلك بشفاعته لأبى طالب وهى التخفيف من عذابه.

قلت هذا مبنى على أن أبى طالب كافر وقد أثبتنا إيمانه فهو أول الدعوى وقد أثبتنا أن شفاعته له باعتبار معصية من الكبائر ارتكبها فهو من أفراد قوله (ص) شفاعتى لأهل الكبائر.

وليس مستثنى من قوله تعالى «فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» [المدثر، ٤٨] ولا مخصصاً

لعموم الآية فهى باقية على عمومها وليس عندهم مثال آخر يمثلون به لشفاعته لأحد من الكفار غير أبى طالب فإن كان لهم دليل آخر فليذكر حتى ينظر فيه.

نعم إن أرادوا الكفار فى ظاهر الشرع رجع الخلاف لفضيلنا ولو لم نحمل الكلام على هذا التحقيق يلزمهم ايضاً أن قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» [النساء: ٤٨] مخصوص بغير أبى طالب ولا قائل به.

وقد تكلم؛ البرزنجى على الآيات التى فى القرآن التى قيل أنها نزلت فى أبى طالب.

كقوله تعالى «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» [التوبة: ١١٣] .

فقال إنى تتبعت الأحاديث الواردة فى سبب نزولها فوجدتها منقسمة إلى ثلاثة أوجه؛

الأول؛ أنها نزلت فى أبى طالب.

والثانى؛ أنها نزلت فى والدة النبى (ص).

والثالث؛ أنها نزلت فى آباء الناس الذين ماتوا فى الكفر كان اولادهم يستغفرون لهم.

اما الوجه الثانى؛ وهى أنها نزلت فى والدة النبى (ص) فهو ضعيف جداً.

واما الوجه الأول؛ وهو كونها نزلت فى أبى طالب فهو اختصار من الرواة فى الحديث فالصحيح أن سبب النزول هو الوجه الثالث.

ومما استدلل به على ذلك أن الآية نزلت بالمدينة والسورة مدنية نزلت بعد تبوك وموت أبى طالب كان بمكة قبل نزول الآية بنحو اثنى عشر سنة.

ثم رأينا أن علياً رضى الله عنه روى من طرق صحيحة رواها الإمام أحمد والترمذى والطيالسى وابن أبى شيبه والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقى أن السبب فى نزولها استغفار ناس لأبائهم المشركين.

قال على رضى الله عنه سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت: اتستغفر لأبويك وهما مشركان.

فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه. فذكرت للنبي (ص) فنزلت «ماكان للنبي والذين آمنوا» الآية فهذه الرواية صحيحة.

وقد وجدنا لها شاهداً برواية صحيحة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما رواها ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

قال: كانوا يستغفرون لأبائهم حتى نزلت هذه الآية فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا.

ثم أنزل الله «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ» [التوبة: ١١٤] يعنى استغفر له ماكان حياً فلما مات أمسك عن الاستغفار له.

وهذا شاهد صحيح فحيث كانت هذه الرواية أصح كان العمل بها أرجح فالأرجح أنها نزلت فى استغفار أناس لأبائهم المشركين لا فى أبى طالب.

ثم ذكر أنه يمكن الجمع بينها وبين الرواية التى فيها أنها نزلت فى أبى طالب مع حصول مطلوبنا لأن الرواية التى فيها أنها نزلت فى أبى طالب فيها اختصار حيث قال الراوى فى آخرها لاستغفرن لك ما لم إنه عنك فنزلت «ما كان للنبي» الآية.

ولم يقل فقال المسلمون إن رسول الله (ص) يستغفر لعمه نستغفرن لأبائنا فاستغفروا لأبائهم فنزلت فى حقهم الآية فحيث حذفت هذه الجملة ظن الراوى أنها نزلت فى أبى طالب ولو ذكرت هذه الجملة ل قيل نزلت فى استغفار أناس فى آبائهم.

وبيان ذلك إن النبي (ص) لما عرض على أبى طالب أن يقول لا إله إلا الله بحضور أبى جهل وعبد الله بن أمية المخزومي فأبى أبو طالب فقال النبي: لاستغفرن لك ما لم أنه عنك.

فقال المسلمون: إن رسول الله يستغفر لعمه. نستغفرن لأبائنا فاستغفروا لأبائهم فنزلت فى حقهم الآية فاقتصر الراوى وحذف منه الجملة الأخيرة.

ومما يدل على هذا الجمع أنا وجدنا أحاديث يستفاد منها هذا الجمع.

منها: مارواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال لما مرض أبو طالب أتاه النبي (ص) فعرض عليه أن يقول لا إله إلا الله فأبى أبو طالب فقال النبي لأستغفرن لك ما لم أنه عنك.

فقال المسلمون: هذا محمد يستغفر لعمه وقد استغفر إبراهيم لأبيه فاستغفروا
لقراياتهم من المشركين.

فأنزل الله تعالى «ماكان للنبي والذين آمنوا» الآية.

ثم أنزل «وماكان استغفار إبراهيم لأبيه» الآية.

وروى ابن جرير من طريق شبل عن عمرو بن دينار أن النبي (ص) قال: استغفر
إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال استغفر لأبى طالب حتى ينهاني عنه ربي.

فقال أصحابه: لنستغفرن لأبائنا كما استغفر النبي لعمه.

فأنزل الله «ماكان للنبي» الآية.

فظهر بهذه الأخبار أن الآية نزلت فى استغفار المسلمين لأقاربهم المشركين فظهر
أن فى الرواية التى فيها أنها نزلت فى أبى طالب اختصاراً وحذفاً بسببه حصل الاشتباه
حتى ظن أنها نزلت فى أبى طالب وليس الأمر كذلك.

ومما يؤيد أن هذا الجمع متعين أن السورة كلها مدنية نزلت بعد تبوك وبينها
وبين موت أبى طالب نحو من اثنتى عشرة سنة.

وانضم إلى ذلك حديث على السابق الصحيح وما انضم من الشواهد وكون الآية
مدنية فلا ينبغى إلغاء تلك الشواهد وترجيح أنها نزلت فى أبى طالب وإن كان مذكوراً

فى البخارى ومسلم إذ قد يرجح حديث غير البخارى ومسلم لأمر تقتضى ذلك.

وقد صرحوا بذلك فى أصول الحديث فقولهم يقدم حديث البخارى ومسلم او أحدهما ليس على إطلاقه.

ومما يؤيد هذا الجمع أن المراد من أبى إبراهيم عمه كما حققنا ذلك فى نجاة الأبوين^(١).

واجمع على ذلك أهل الكتابين التوراة والإنجيل.

وعم إبراهيم وهو آزر كان يتخذ أصناماً آلهة كما حكى الله عنه وكان يقول لإبراهيم «أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم» مريم / ٤٦ .

ولم ينقل عن أبى طالب بطريق صحيح أنه اتخذ صنماً إلهاً او عبد حجراً او نهى النبى (ص) عن عبادة ربه غايته أنه ترك النطق بالشهادتين او ترك بعض الواجبات ومع ذلك قلبه مشحون بتصديق النبى.

ومثل هذا ناج فى الآخرة على مقتضى ديننا فلا يليق بالحكمة ولا بمحاسن الشريعة الغراء ولا بقواعد الأئمة من أهل الكلام أن يكون هو وآزر عم إبراهيم فى قرن واحد حاشا من كرم الله تعالى.

قال حسان رضى الله عنه:

(١) أى فى رسالة نجاة الأبوين: عبدالله وآمنة. والكلام هنا للبرزنجى.

أمن يهجو رسول منكم ويمدحه وينصره سواء

فإن أبا طالب ربه صغيراً وآواه كبيراً ونصره ووقره وذبح عنه ومدحه بقصائد
غرر ورضى باتباعه.

وليس فى حديث عمرو بن دينار المار أنفاً دلالة على شركة فى قوله، استغفر
إبراهيم لأبيه وهو مشرك. فلا أزال استغفر لأبى طالب. بل يمكن أن معناه أن إبراهيم
استغفر لأبيه مع شركة فكيف لا استغفر انا لأبى طالب مع أن خطيئته دون الشرك فلا
أزال استغفر له حتى ينهانى ربه ولم ينه بل نهى عن الاستغفار للمشركين لا لخصوص
عمه.

فلو كان كذلك لقل أن يستغفروا للمشركين وأن يستغفر النبى لعمه ولم يقل
كذلك.

ويصرح بهذا ما أورده فى الدر المنثور من طريق ابن جرير عن قتادة أن رجلاً من
أصحاب رسول الله (ص) سألوه عن الاستغفار لأبائهم.

فقال: والله إنى لا استغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه.

فأنزل الله «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية.

فقال النبى (ص): إنى أوحى إلى كلمات قد دخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى أمرت

أن لا استغفر لمن مات مشركا.

فكونه (ص) قال إنى لأستغفر لأبى يعنى لعمى ثم لم يقل امرت أن لا استغفر له. بل قال لمن مات مشركا جواب لسؤال أصحابه مع الإشارة الخفية إلى أن عمه لم يكن مشركا فدللت أحاديث شفاعته (ص) على أنه يشفع فيمن فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من إيمان وهذه الإشارة الخفية كانت تقع منه (ص) حرصاً على الصدق وأن لا يقع فى كلامه لفظ مخالف للواقع فإنه معصوم من الكذب وهو منه مستحيل فيأتى بلفظ عام فيه إشارة خفية فيحصل بذلك جواب السائل ويرضى به وتطيب به نفسه.

ومن ذلك ما رواه ابن ماجه عن ابن عمر ما قال جاء إعرابى إلى النبى (ص) فقال إن أبى كان يصل الرحم وكان وكان فأين هو ؟ .

قال فى النار.

فكانه وجد من ذلك فقال الرجل أين أبوك أنت؟ .

فقال حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار.

فأسلم الأعرابى وقال لقد كلفنى رسول الله (ص) شططا ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار. فأجمل رسول الله (ص) الجواب بقوله: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار. جريا على عادته إذا سأل أعرابى وخاف من إفصاح الجواب له فتنته واضطرب قلبه. اجاب بجواب فيه تورية وإيهام مع تحرى الصدق.

فهنا لم يفصح له بحقيقة الحال ومخالفة حكم أبيه لأبيه فى المحل الذى هو فيه خشية ارتداده.

لما جلبت عليه النفوس من كراهية الاستيثار عليها ولما كانت عليه العرب من الجفاء وغلظ القلوب فأورد له جواباً موهماً تطييباً لقلبه فتعين الاعتماد على هذا اللفظ وتقديمه على غيره مما غيره الرواة بالمعنى.

كرواية مسلم أن رجلاً قال يا رسول الله أين أبى؟

قال فى النار.

فلما ولى دعاه. فقال: إن أبى وأباك فى النار^(٢).

فهذه الرواية منكرة وللعلماء فيها كلام كثير لخصه الزرقانى فى شرح المواهب قال: واحسن ما يقال فيها أن الرواة تصرفوا فيها واختلفت رواياتهم وأن الصواب كالرواية الأولى وهو حيثما مررت بقبر كافر. فهى فى غاية الاتقان يتبين بها أن اللفظ العام وهو حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار هو الصادر منه (ص).

فكان بعض الرواة فهم أن قوله حيثما مررت بقبر كافر شامل لأبى النبى وأنه كافر فغيره ورواه بالمعنى على حسب فهمه.

(٢) كتاب الإيمان باب بيان أن من مات على الكفر فهو فى النار.

وقال - اى الزرقانى - إن أبى وأباك فى النار وما تقدم من أن آزر عم إبراهيم وليس بأبيه هو القول الصحيح.

قال العلامة ابن حجر الهيتمى إن أهل الكتابين اجمعوا على أن آزر لم يكن أباً لإبراهيم حقيقة وإنما كان عمه وسماه الله فى القرآن أباً لأن العرب تسمى العم أباً.

وجزم بذلك الفخر الرازى وقال جاء فى القرآن تسمية العم أباً. «إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ» [البقرة: ١٣٣] مع أن الكلام كان مع أولاد يعقوب وإسماعيل عم يعقوب^(٣).

وقد سبق الرازى إلى ذلك جماعة من السلف منهم ابن عباس ومجاهد وابن جرير والسدى قالوا ليس آزر أباً إبراهيم وإنما هو عمه لأن إبراهيم أبوه تارخ.

وممن وافق الرازى الماوردى من أئمة الشافعية.

وقال فى قوله تعالى «وتقلب فى الساجدين» كما قال الرازى أن المراد تقلبه وتنقله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية وهذا وجه من وجوه تفسير الآية وليس مراده الحصر فى هذا الوجه ولكن هذا الوجه هو الأولى بالقبول.

فقد أخرج ابن سعد والبزار والطبرانى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: «وتقلب فى الساجدين» قال من نبى إلى نبى ومن نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبياً ففسر تقلبه فى الساجدين بتنقله فى أصلاب الأنبياء ولو مع الوسائط.

(٣) انظر تفسير الفخر الرازى سورة البقرة آية رقم ١٣٣ وانظر أسرار التنزيل.

وحمل الآية على اعم منهم وهم المصلون الذين لم يزالوا فى ذرية إبراهيم اوضح
ليشمل غير الأنبياء.

فقد اخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى «رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن
ذريتى» [ال، ١٠] قال فلا تزال من ذرية إبراهيم ناس على الفطرة يعبدون الله تعالى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد فى قوله تعالى «وجعلها كلمة باقية فى
عقبه» التخرىف / ٢٨. اتها لا إله إلا الله باقية فى عقب إبراهيم عليه السلام.

وعن قتادة فى الآية هى شهادة أن لا إله إلا الله والتوحيد لا يزال فى ذريته من
يقولها من بعده.

وقد صح من طرق صحيحة أن الأرض لم تخل من سبعة مسلمين فمن ذلك ما
اخرجه عبدالرزاق وابن المنذر بسند صحيح على شرط الشيخين عن على رضى الله
عنه قال لا يزال على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا ولولا ذلك لهلكت الأرض ومن
عليها.

واخرج الإمام أحمد فى الزهد بسند صحيح على شرط الشيخين عن ابن عباس
رضى الله عنهما قال ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن اهل
الأرض.

واخرج البخارى حديث بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من

القرن الذى كنت فيه والآية هى شهادة أن لا إله إلا الله والتوحيد لا يزال فى ذريته من يقولها من بعده .

وقد صح من طرق صحيحة أن الأرض لم تخل من سبعة مسلمين.

فمن ذلك ما أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر بسند صحيح على شرط الشيخين عن على رضى الله عنه قال لا يزال على وجه الأرض سبعة مسلمين فمن ذلك ما أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر بسند صحيح على شرط مسلمون فصاعداً ولولا لهلكت الأرض ومن عليها.

وأخرج أحمد فى الزهد بسند صحيح على شرط الشيخين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض.

وأخرج البخارى حديث بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه فإذا قرنت بين هاتين المقدمتين أعلى بعثت من خير قرون بنى آدم ..الخ. وأن الأرض لم تخل من سبعة مسلمين ..الخ. انتهى ما قاله الإمام الرازى من أن آباءه كلهم موحدون لأنه إن كان كل جد من أجداده من جملة السبعة المذكورين فى زمانهم فضيه المدعى.

وإن كانوا غيرهم فإما أن يكونوا على الحنفية ملة إبراهيم عليه السلام فهو المدعى أيضاً.

وإما أن يكونوا على الشرك فيلزم أحد امرين؛

إما إن يكون غيرهم خيراً منهم وهو باطل لمخالفته الحديث الصحيح من أنهم من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا.

وإما أن يكونوا خيراً وهم على الشرك وهو باطل بالإجماع.

قال تعالى «ولعبد مؤمن خير من مشرك» فثبت أنهم على التوحيد فيكونوا خير أهل الأرض فى زمانهم.

وقد ذكر البرزنجى والسيوطى وغيرهم ممن ألفوا فى نجاة آباء النبى (ص) وأمهاتهم وفى أنهم كلهم على التوحيد دلائل وبراهين على ذلك وأفردوا كل أحد من الأبناء بترجمة.

وقد صح فى أحاديث كثيرة أنه (ص) قال: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات.

وفى رواية: لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة.

وعلى هذا حمل بعضهم قوله تعالى «وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ» [الشعراء: ٢١٩].

وقوله (ص) من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات فأباء النبى وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر.

وإلى هذا أشار صاحب الهمزية حيث قال:

لم تزل فى ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

وقال رسول الله (ص) ما ولدت من بغى قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تزل تتنازعنى الأمم كابرًا عن كابر حتى خرجت من أفضل حين من العرب هاشم وزهرة^(٤).

وحيث ان ابا طالب قال هو على ملة عبدالمطلب فلنذكر بعض ما ذكره فى عبدالمطلب لتعلم علما يقينا انه كان على التوحيد.

فما ذكره فى عبدالمطلب انه نشأ على اكمل الصفات وانتهت إليه الرئاسة بعد عمه المطلب وكان يأسر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيا الأمور.

وكان يقول لمن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يستقيم الله منه وتصيبه عقوبة إلى أن هناك رجل ظلوم من أرض الشام ولم تصبه عقوبة فمهل عبدالمطلب فى ذلك؟

فذكر وقال: والله إن وراء هذه الدار دارًا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته أى فالظلوم شأنه أن تصيبه عقوبة فإن أخرج من الدنيا لم تصبه عقوبة فهى معدة له فى الآخرة^(٥).

(٤) روى أبو نعيم فى دلائل النبوة عن الرسول (ص) قوله: لم يلتق أبواى قط فى سفاح ولم يزل الله ينقلنى من الاصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صافيا مهذبًا لا تشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما.

ويروى ابن سعد فى الطبقات ج ١/ عن الرسول قوله: والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت فى خيرهما.

وانظر دلائل النبوة للبيهقى.

(٥) الملل والنحل للشهرستانى هامش الفصل فى المال والنحل ج ٣/ ٢٢٥.

فهذا إيمان منة باليوم الآخر علمه بالفراسة الصادقة وهى نور الهى يقع فى القلب وكان عبدالمطلب يرفض عبادة الأصنام ويعترف بوحدانية الله تعالى ولم تكن شريعة مشروعة فى زمنه فلهذا كانت عبادته التفكير فى آلاء الله ومصنوعاته وصلة الأرحام واصطناع المعروف والاتصاف بمكارم الأخلاق.

وكان يختلى كثيراً بغار حراء ليجمع فكره وقلبه فى الاستغراق فى التفكير فى صفات الله وأفعاله الدالة عليه وورد عنه فى السنة أشياء كان متصفاً بها ويأمر الناس بفعالها.

منها الوفاء بالنذر والمنع من نكاح المحارم وقطع يد السارق والنهى عن قتل المؤودة وتحريم الخمر والزنا وأن لا يطوف بالبيت عرياناً.

وهو أول من جعل الدية مائة من الإبل فجاء الشرع مؤيداً ذلك ومقراً.

وكان لطيب ريحه يفوح منه رائحة المسك وكان نور النبى يضىء فى غرته.

وفيه يقول القائل:

علا شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وكانت قريش إذا أصابها قحط شديد تأتى عبدالمطلب فتستسقى به فيسقون ولما جاء أصحاب الفيل ليهدموا الكعبة هلكوا بدعائه عند البيت المعظم.

ومما نقل عنه فى ذلك اليوم:

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رجالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وقال ايضاً:

يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع عنهم حماك
إن عدو البيت قد عاداك فامنعهم أن يخربوا قراك

واخذ اصحاب الفيل له ذوداً من الإبل فذهب إلى أبرهة رئيسهم يسأله اطلاق
إبله فعظمه واجلسه معه على سريره فلما سأله اطلاق إبله.

قال له أبرهة سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك
فألهاك عنه ذود اخذ منك.

فقال أنا رب الإبل ولليبت رب يمنعه.

وقال يا معشر قريش لا يصل إلى هدم البيت لأن لهذا البيت رباً يحميه فأرسل
الله عليهم طيراً أبابيل فأهلكهم^(٦).

وكان لعبد المطلب إبل كثيرة يجمعها فى الموسم ويسقى لبنها بالعسل فى حوض
من آدم عند زمزم ويشترى الزبيب فينقعه بماء زمزم ويسقيه الحاج.

ولما توفى عبد المطلب قام بالسقاية أبو طالب ثم بعده العباس^(٧).

(٦) انظر قصة اصحاب الفيل فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وكتب التاريخ.

(٧) انظر المراجع السابقة باب وفاة أبو طالب.

ومن كلام عبدالمطلب:

يارب أنت الملك المحمود وأنت ربى الملك المعبود
من عندك الطارف والتلبد

وكان عبدالمطلب يكرم النبى (ص) ويعظمه وهو صغير ويقول إن لابنى هذا لشأنا عظيماً^(٨).

وقد سمع من الكهان والرهبان شيئاً كثيراً فى شأن النبى قبل ولادته وبعدها^(٩).

وكان عبدالمطلب رئيس قريش معظماً فيها وكانوا يفرشون له حول الكعبة فيجلس ويجتمع حوله رؤساء قريش ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه ولا أن يطأه بقدمه.

وكان النبى (ص) وهو صغير يزاحم الناس فيدخل حتى يجلس بجانب جده عبدالمطلب وربما جاء قبل جده عبدالمطلب فجلس على فراشه فإذا أراد أحد من أعمامه أن يمنعه يزجره جده عبدالمطلب ويقول دعوه إن له لشأنا ثم يجلس على فراشه معه ويمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع^(١٠).

وتوفى عبدالمطلب وعمر النبى ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبى طالب وكان شقيق أبيه عبدالله وامهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمر بن مخزوم.

(٨) ابن هشام وابن سعد باب ذكر عبدالمطلب.

(٩) المرجعين السابقين وانظر كتب التاريخ.

(١٠) المرجعين السابقين.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت ابنى العباس يقول كان لعبد المطالب مفرش فى الحجر يجلس عليه لا يجلس عليه غيره وكان حرب بن امية فممن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون الفرش فجاء رسول الله يومًا وهو غلام فجلس على الفرش فجذبه رجل فبكى.

فقال عبدالمطلب : ما لابنى يبكى.

قالوا : اراد ان يجلس على الفرش فمنعوه.

فقال عبدالمطلب : دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف وارجو ان يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربى قبله ولا بعده.

فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عيدالمطلب او غاب^(١١).

وفى رواية : دعوا ابنى انه ليؤتس ملكا.

وفى رواية : فإنه تحدثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن.

وكان عبدالمطلب من علماء قريش وحكمائها وكان مجاب الدعوة محرماً للخمر على نفسه وهو اول من تحنث بغار حراء والتحنث التبعيد اللىالى ذوات العدد.

وكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين وكان صعوده للتخلى عن

(١١) المرجعين السابقين.

الناس يتفكر فى جلال الله وعظمته وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤس الجبال..

وكان يقال له مطعم الطير.

ويقال له الفياض. ولد وفى رأسه شيبة فقيل له شيبة الحمد رجاء أنه يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له.

وقد حقق الله ذلك فكثر حمدهم له لأنه كان مفرع قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور وشريفتهم وسيدهم كمالاتهم فعلا عاش مائة وأربعين سنة وله مناقب كثيرة.

منها حضر بئر زمزم وكانت درست بعد إسماعيل فأمر فى المنام بحضرها وأرشد فى المنام إلى محلها وقصة ذلك طويلة مذكورة فى كتب السير^(١٢).

وفى السيرة الحلبية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله (ص) يبعث جدى عبدالمطلب يوم القيامة فى زى الملوك وأبهة الإشراف.

قال البرزنجى: ويروى أن عبدالمطلب يعطى نور الأنبياء وجمال الملوك ويبعث أمة وحده. قال: لأنه كان على التوحيد.

وذلك كمن أخبر عنه النبى (ص) من أمثاله كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة ابن --

(١٢). انظر المرجعين السابقين قصة حضر زمزم.

نوفل أنه يبعث أمة وحده.

ومن يبعث أمة وحده لا يبعد أنه يعطى نور الأنبياء لأنه مستقل لا تابع.

واما كونه يعطى جمال الملوك فلأنه كان سيد قريش فى زمانه وهو ملحق بالملوك الذين عدلوا وما ظلموا.

وهذا له شاهد فيما رواه البيهقى وأبو نعيم عن كعب الأحبار أنه قال فى التوراة فى صفة أمة محمد (ص) أنهم فى القيامة يعطون نور الأنبياء^(١٣).

وبالجملة فمن وقف على مذكره العلماء فى ترجمته علم علما يقينا أنه كان على التوحيد وهكذا بقية آبائه إلى آدم عليه السلام.

وبهذا يعلم أن قول أبى طالب هو على ملة عبدالمطلب إشارة إلى أنه على التوحيد ومكارم الأخلاق ولو لم يصدر من أبى طالب من الإشارات الدالة على التوحيد إلا قوله وهو على ملة عبدالمطلب لكان ذلك كافيا.

فله دره من لبيب حاذق وهذا المسلك الذى سلكه العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجى فى نجاه أبى طالب لم يسبقه إليه أحد فجراه الله أفضل الجزاء ومسلكه هذا الذى سلكه يرتضيه كل من كان متصفا بالإنصاف من أهل الإيمان لأنه ليس فيه إبطال شئ من النصوص ولا تضعيف لها وغاية ما فيه إنه حملها على معان مستحسنة يزول بها الأشكال ويرتفع الجدل ويحصل بذلك قررة عين النبى (ص) والسلامة من الوقوع فى تنقيص أبى طالب أو بغضه فإن ذلك يؤذى النبى.

(١٣) انظر دلائل النبوة لأبى نعيم والبيهقى.

وقد قال الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» [الأحزاب: ٥٧] .

وقال تعالى «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» .

وقد ذكر أحمد بن الحسين الموصلى الحنفى المشهور بابن وحشى فى شرحه على الكتاب المسمى بشهاب الأخبار للعلامة محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ إن بغض أبى طالب كفر ونص على ذلك أيضا من أئمة المالكية العلامة على الأجهورى فى فتاويه والتلمسانى فى حاشيته على الشفاء فقال عند ذكر أبى طالب لا ينبغى أن يذكر إلا بحماية النبى (ص) لأنه حماه ونصره بقوله وفعله وفى ذكره بمكروه اذية للنبى وكفر والكافر يقتل .

وقال أبو الطاهر من أبغض أبا طالب فهو كافر .

والحاصل أن إيذاء النبى (ص) كفر يقتل فاعله إن لم يتب .

وعند المالكية يقتل وإن تاب .

وروى الطبرانى والبيهقى أن ابنة أبى لهب واسمها سبيعة وقيل درة قدمت المدينة مسلمة مهاجرة .

فقيل لها لا تغنى عنك هجرتك وانت بنت حطب النار فتأذت من ذلك فذكرته للنبى (ص) فاشتد غضبه ثم قام على المنبر .

فقال ما بال اقوام يؤذوننى فى نسبى وذوى رحمى فمن آذى نسبى وذوى رحمى فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى.

واخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه ان رسول الله (ص) قال من آذى شعرة منى فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى.

فبغض أبى طالب والتكلم فيه يؤذى رسول الله (ص) ويؤذى اولاده الموجودين فى كل عصر.

وقد قال (ص) لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات.

ومما يؤيد هذا التحقيق الذى حققه العلامة البرزنجى فى نجاه أبى طالب ان كثيراً من العلماء المحققين وكثيراً من الأولياء العارفين ارباب الكشف قالوا بنجاه أبى طالب منهم القرطبى والسبكى والشعرانى وخلائق كثيرون وقالوا هذا الذى نعتقده وندين الله به وإن كان ثبوت ذلك عندهم بطريق غير الطريق الذى سلكه البرزنجى فقد اتفق معهم على القول بنجاته.

فقول هؤلاء الأئمة بنجاته اسلم للعبد عند الله تعالى لا سيما مع قيام هذه الدلائل والبراهين التى أثبتتها العلامة البرزنجى.

ومما استدل به القائلون بعدم نجاته ان عم النبى (ص) لم يورث منه جعفرًا ولا عليًا لاختلاف الدين.

«وأجاب البرزنجى عن ذلك بوجه.

منها، أن الميراث فى وقت موت أبى طالب لم يقرض وإنما كان الأمر بالوصية فقد يكون أبو طالب أوصى بماله لعقيل فإنه كان يحبه كثيراً ويحتمل على تسليم أن عقيلاً أخذ ذلك ميراثاً أن النبى (ص) إنما سكت معاملة لأبى طالب وعقيل بحسب ظاهر الأمر من الكفر بحسب الأحكام الدنيا.

قيل إنهما نزل فى أبى طالب «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسَالُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» [البقرة: ١٢٩] وهذا القول ضعيف جداً كالقول بأنها نزلت فى أبوى النبى (ص) فإن ذلك ضعيف أيضاً. بل قيل إن ذلك باطل لا أصل له والآية إنما نزلت فى اليهود.

قال أبو حيان فى البحر: «وسواء بقى الآيات، والواحقها تدل على ذلك أى فإن الجميع نزل فى اليهود بخلاف ذلك يوجب تفكيك نظم الآيات. وذهب جزالتها كما أشار إلى ذلك المولى أبو السعود فى تفسيره» (١٤).

وقد ذكر البرزنجى أحاديث كثيرة تدل على نجات أبى طالب ثم قال وإن كان بعضها ضعيفاً لكن أكثرتها يقوى بعضها بعضاً لا سيما وأكثرها صحيح لا ضعف فيه.

فمن الصحيح ما أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن على رضى الله عنه قال أخبرت رسول الله (ص) بموت أبى طالب فبكى وقال اذهب فغسله وكفنه وواراه غفر الله له ورحمه.

(١٤) تفسير البحر المحيط سورة البقرة آية رقم ١٢٩. وانظر تفسير أبو السعود.

وفى السيرة الحلبية أن هذا الحديث أخرجه أيضا أبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة عن على رضى الله عنه قال لما مات أبو طالب أخبرت النبى (ص) بموته فبكى وقال اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه.

ثم قال البرزنجى: على أن اعتمادنا على المسلك الأول الكافى فى النجاة ولا نحتاج إلى هذا ولكنه زيادة تأكيد فى المدعى.

ومن الأحاديث التى ذكرها فى الشفاعة ما رواه أحمد والطبرانى والبزار عن معاذ ابن جبل وأبى موسى قالا: قال رسول الله (ص): إن ربي خيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة أو شفاعة فاخترت لهم الشفاعة وعلمت أنها أوسع لهم وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئا.

وروى أحمد وابن أبى شيبه والطبرانى عن أبى موسى قال : قال رسول الله (ص): إنى أخرت شفاعتى وجعلتها لمن مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا.

وفى رواية لأبى يعلى وأبى نعيم عن أبى ذر رضى الله عنه - وهى نائلة منهم إن شاء الله تعالى - من لم يشرك بالله شيئا .

وفى رواية عن عوف بن مالك عن رسول الله (ص) سألت الله أن لا يلقاه عبد من أمتى يوحد إلا ادخله الله الجنة.

وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمر إن رسول الله (ص) تلا قول إبراهيم «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [إبراهيم: ٣٦].

وقول عيسى «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»
المائدة / ١١٨ فرفع يديه وقال امتى امتى ثم بكى.

فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى امتك ولا
نسوءك (١٥).

وروى البزار والطبرانى عن على كرم الله وجهه عن رسول الله (ص) فقال: أشفع
لامتى حتى ينادينى ربى ارضيت يا محمد فأقول أى رب رضيت.

وروى الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه
قال: قال رسول الله (ص): إنى أخرت شفاعتى لأمتى وهى بالغة إن شاء الله من مات لا
يشرك بالله شيئاً.

قال البرزنجى فانظر هذه الأحاديث فإنها كلها تدل على أن الشفاعة لا تنال
مشركاً وقد نالت الشفاعة أبا طالب بنص الحديث الصحيح ونعلم قطعاً أنه كان يصدق
بنبوة النبى (ص) وصدقه وحقية دينه وكفى بالظاهر دليلاً.

فلابد من القول بنجاته ولا منافاة بينها وبين الأحاديث التى فيها ذكر كفره
ودخوله النار لما تقدم أن الحكم بكفره إنما هو بالنسبة للأحكام الدنيوية نظراً لظاهر
الشرع وأن دخوله النار لأجل ترك فرض من الفرائض وهذا لا يلزم منه خلوده فى النار
وليس هناك نص على أنه مخلد فى النار مع ما مر فى بيان سبب نزول النهى عن ----

الاستغفار من الجمع ولله الحمد.

وتقدم إن قوله تعالى «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» لا يمنع من إيمانه فإنها إنما دلت على أنك لا تهديه ولكن الله يهدى من يشاء فنقول أن الله هداه.

وتقدم أن العباس لما أخبر النبى (ص) يأتيه أتى بالشهادة قال له ثم أسمعك إنما قال له ذلك نظرًا إلى ظاهر الحال وذلك لا يمنع أن الله أطلعه على إيمانه ولذلك قال كل الخير أرجو من ربى.

وقد صح أن العباس سأل رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله أترجو لأبى طالب خيرًا. قال: كل الخير أرجو من ربى.

وهذا الحديث رواه ابن سعد فى الطبقات بسند صحيح ورجاؤه (ص) محقق ولا يرجو كل الخير إلا للمؤمن ولا يجوز أن يراد بهذا ما حصل له من تخفيف العذاب فإنه ليس خيرًا فضلًا عن أن يكون كل الخير وإنما تخفيف العذاب تخفيف الشر وبعض الشر أهون من بعض وحصول كل الخير إنما يكون بدخول الجنة.

قال بعض العارفين أنه ثبت عند أهل الكشف إيمان أبى طالب ثبوتًا لا شك فيه ولعل السبب فى أن الله أبهم أمره بحسب ظاهر الشرع لتطبيب قلوب أصحاب النبى (ص) الذين كان آبائهم كفارًا لأنه لو صرح لهم بإيمان أبى طالب وهم يرونه كافرًا بحسب الظاهر مثل آبائهم تنفر قلوبهم وتنويع صدورهم ويقولون إنه لا فرق بينه وبين آبائنا.

فكيف يكون ناجياً وهم معذبون؟

وهذا يكون منهم بحسب ما تقتضيه الطبيعة البشرية فإنها تنفر من استئثار غيرها عليها كما تقدم نظير ذلك فى الذى قال أين أبى.

ولو اظهر أبو طالب إيمانه لفات ما قصده من نصرة النبى (ص) وحمايته ثم فى ذلك لله تعالى حكم كثيرة لا اطلاع لنا عليها فيجب علينا التسليم لأمر الله تعالى والانقياد لحكمه والرضا به وحفظ الأدب مع رسول الله (ص) واهل بيته وتحسين الظن بهم حتى لا يطالبنا احد منهم بظلامة ونسال الله تعالى التوفيق.

هذا خلاصة ما لخصته من الخاتمة التى ذيل بها العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجى رسالته التى ألفها فى نجاه الأبوين مع ما ضممته إلى ذلك مما وجدته فى المواهب والسيرة الحلبية وغيرهما من الكتب المعتمدة المرضية.

قال العلامة البرزنجى فى آخر الخاتمة التى هى آخر رسالته لما اكملت تسويده فى أوائل شهر الله الحرام ذى القعدة من شهور سنة ألف وثمانون بالمدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة وازكى السلام فى منزلى بالزقاق المشهور بزقاق البدور وهو داخل السور أرسلت به إلى بعض خدام الحرم الشريف ممن له قدم فى طريق الله تعالى وله اذكار واوراد وله سلوك وهو متوسم بالصالح ليدخله الحجرة الشريفة تحت أستار كسوة القبر المعظم فإنه هديته (ص).

فإن وقع فى حيز القبول بيضته وإلا ضيعته قبل أن تنتشر منه النسخ، فأدخله

تحت واستمر فيه ليلتين ثم رده إلى وبشرنى بأنه وقع فى حيز القبول من حضرة الرسول وشفعه فى جميع الفروع فحمدت الله على ذلك وبيضته بعون الملك المالك فالحمد لله على ما أنعم وألهم ثم له الحمد على أنه كما بدا تمام حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه حمداً يوفى نعمه ويكافئ مزيده كما ينبغى لجلال وجهه وعظمته سلطانه حمداً يستوجب المزيد الموعود بقوله تعالى «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» [إبراهيم: ٧].

واكمل الصلاة والتسليم على المبعوث بالقرآن الحكيم والموصوف بالخلق العظيم المتعوت بأنه بالمؤمنين رؤف رحيم صلاة وسلاماً تجازيان عناه وتوازيان غناه وعلى آله وآبائه وأمهاته وأزواجه وذرياته وورثة علومه وعباداته وغفر الله لنا ولوالدينا وإخواننا قلبنا وصلبنا وديننا ولجميع المسلمين والمسلمات.

«ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم» الحشر / ١٠. «دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [يونس: ١٠].

هذا آخر ما فى رسالة السيد محمد بن رسول البرزنجى المؤلفة فى نجاته الأيوين المذيلة بالخاتمة التى فى نجاته أبى طالب عم النبى (ص).

(قال المؤلف رحمه الله تعالى) وكان الفراغ من تسويد ذلك يوم السبت الثامن عشر من شهر شعبان المبارك سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة من هجرة النبى (ص).

ملاحق الكتاب

ملحق (١)

سؤال للشريف عبدالمطلب رحمه الله تعالى سنة ١٢٩٩هـ

ما قولكم أيها العلماء الأعلام ومصابيح الظلام قمع الله بكم طغام اللثام ولثام الطغام فيمن انتدب ممن يزعم أنه من طلبة العلم لهدم قبر أبى طالب عم النبي (ص) زاعماً أنه من المناكر المجمع عليها فى بلد الله الحرام وكتب للحكام يدور به على العلماء وخلافهم من الأنام يحرضهم على أن يساعدوه على هدم قبر هذا الكافر بهذا اللفظ الشنيع ونحوه من الكلام غير مبال إلى ما يترتب على ذلك من بعث فتنة نائمة لعن الله من ايقظها.

فإن كثيراً من أهل السنة والجماعة من بنى هاشم وغيرهم يعتقدون نجاته تبعاً لما جاء فى ذلك ولما نقله الجهابذة الفخام الحقيقون بأن يتخذوا حجة للخلق لدى الملأ العلام وهم السبكي والقرطبي والشعراني رحمهم الله تعالى على الدوام أن الله أحيا أب طالب وآمن بالمصطفى ومات مسلماً.

قال الإمام المحقق السحيمي بعد نقله ذلك وهذا هو الذى اعتقده والقى الله به فيكون هذا العذاب حصل له قبل إحيائه ويكون المراد بالقيامة قيامته وهى خروج روحه من جسده فيأهل ترى هؤلاء العلماء جهلوا ما ورد فى حق أبى طالب من نصوص الشريعة فلم يسع هذا المنتدب المبغض السكوت تقلداً لقدحه فى ادعائه الإجماع الذى زعمه مع ما فيه من أذية رسول الله (ص) وآله ومحبيه وهل جهله بذلك يكون عذراً له فيما تطلبه مما ليس يعنيه؟

وهل يجب على الحكام أيدهم الله تعالى زجر هذا المبغض بما يليق به ويكون زاجراً له ولغيره عن الحركات الباعثة للفتن وتنافر قلوب المسلمين؟

فإن القائلين بنجاته أهل شوكة وشكيمة فى هذا البلد الأمين أفيدونا نصر الله بكم الإسلام وأناز بمصايحكم حالك الظلام.

الجواب، والحمد لله رب العالمين رب زدنى علماً قال بعض المفسرين فى قوله تعالى «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» الشورى / ٢٣ أى على تبليغ الرسالة أى أن تحفظوا قرابتي وتودونى وتصلوا رحمتى وذلك إنه لم يكن حى من قريش إلا وفيهم له (ص) قرابة فكأنه يقول إن لم تؤمنوا بى فاحفظوا قرابتي فيكم ولا تؤذونى أ هـ.

وقال تبارك وتعالى «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً».

وفى شرح الشهاب لابن وحشى قال أبو الطاهر من ابغض أبا طالب فهو كافر بالله عز وجل.

وفى معروضات المفتى أبى السعود سؤال طالب علم ذكر عنده حديث نبوى. فقال: أكل أحاديث النبى (ص) صدق؟

فأجاب بأنه يكفر أولاً بسبب الاستفهام الإنكارى.

وثانياً بإلحاقه الشين بالنبى (ص) الدر المختار إذا تكلم بكلمة الكفر ولم يدر أنها كفر.

قال بعضهم لا يكون كفراً ويعذر بالجهل.

وقال بعضهم يصير كافراً بذلك تنقيح.

وقال فى المختار ينبغى ان يحفظ اللسان عما يجب الاحتراز عنه لقوله (ص)، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

وعنه (ص) البلاء موكل بالمنطق اهـ.

وعليه فيلزم الولاة ايدهم الله تعالى اجرا ما يستحقه على ما صدر منه مما يسد باب الجراءة ويزجر اهل الجراءة والفساد كما قال تعالى «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [المائدة: ٣٣] إلى آخر الآية والله سبحانه وتعالى أعلم.

ملحق (٢)

فتوى أحمد بن عبدالله ميرغني مفتى الأحناف

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والسالكين
نهجهم بعده اللهم أسألك هداية للصواب.

اعلم رحمك الله تعالى أن أبا طالب عم النبي (ص) ادعى إناس أن أهل السنة
والجماعة اتفقوا على عدم نجاته وتمسكوا فى ذلك بظواهر من الكتاب والسنة.

ودعواهم اتفاق أهل السنة على عدم نجاته دعوى غير صحيحة فقد وجد كثير
من أهل السنة يقولون بنجاته منهم الإمام القرطبي والإمام السبكي والإمام الشعراني
كما ذكره السائل فى سؤاله فقد راجعت ما ذكره فى شرح العلامة السحيمي على شرح
الشيخ عبدالسلام اللقاني على منظومة والده المسماة بجوهرة التوحيد فى بحث
الشفاعة عند قول الناظم وواجب شفاعة المشفع فوجدته نقل عن القرطبي والسبكي
والشعراني أن الله أحيا أبا طالب وآمن بالمصطفى (ص) ثم مات مسلماً.

قال العلامة السحيمي وهذا الذى اعتقده وألقى الله عليه.

وذكر السحيمي قبيل قول الناظم ومنجز لمن أراد وعده أن ابن سعد وابن عساكر
رويا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأل رسول الله (ص) ما ترجو لأبى طالب قال
كل الخير أرجو من ربى.

والإمام القرطبي والسبكي والشعراني كل منهم من أكابر أهل السنة يحتج بقوله

وكذا العلامة السجيمى فبطلت دعوى من ادعى أن أهل السنة متفقون على عدم نجاته.

وثبت أنه يوجد من أهل السنة من يقول بنجاته وحيث وجد الاختلاف فاللائق الاحتياط وأقل المراتب التفويض إلى الله تعالى والسكوت والتوقف وعدم الخوض فى ذلك والاقتصار على قدر الضرورة فى ذكر الأحاديث الواردة فيه مع غاية الأدب والخوف لأن الاحتياط من الورع.

فقد قال (ص) دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

وقال (ص) اليس وقد قيل لما جاءه عقبة بن الحارث فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة فجاءتنا امرأة سوداء. فقالت: قد أرضعتكما وهى كاذبة.

فقال (ص): كيف تصنع بها وقد زعمت أنها أرضعتكما دعها عنك. أى طلقها.

فراجعت النبى (ص) وقلت يا رسول الله إنها امرأة سوداء أى فلا يقبل قولها.

فقال، اليس وقد قيل. فأرشده (ص) إلى طريق الورع والاحتياط وإن لم تقبل شهادة تلك المرأة.

وحيث قال جماعة من أهل السنة بإحياء أبى طالب وإيمانه ونجاته فالاحتياط عدم التعرض له بتنقيص لأن التعرض له لاسيما إذا كان بأفحش العبارات يؤذى النبى (ص) لأن أبى طالب ربه النبى وكان يحبه ويذب عنه لما بعث.

ويؤذى أيضاً أقاربه (ص) الأحياء والأموات.

وقد قال تعالى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى».

وقد أخرج الديلمي عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله (ص) قال اشتد غضب الله على من آذانى فى قرابتى.

وروى الطبرانى والبيهقى أن بنت أبى لهب واسمها سبيعة وقيل درة قدمت المدينة مسلمة مهاجرة فقيل لها لا تغنى عنك هجرتك وأنت بنت حطب النار فتأذت من ذلك فذكرته للنبي (ص) فاشتد غضبه ثم قام على المنبر فقال: ما بال أقوام يؤذونى فى نسبى وذوى رحمى من آذى نسبى وذوى رحمى فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى.

وأخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه أن رسول الله (ص) قال من آذى شعرة منى فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى.

وروى الطبرانى والإمام أحمد والترمذى عن المغيرة ابن شعبه عن النبي (ص) أنه قال لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات.

ولاشك أن النطق بقبيح القول فى حق أبى طالب والتشديد به فى مجالس الخاصة والعامة وسفهاء الناس يؤذى أولاد على رضى الله عنه الموجودين الآن بل ويؤذى أمواتهم فى قبورهم.

ويؤذى النبى (ص).

فقد قال تعالى «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم».

وقال تعالى «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً».

وهذا هو ملحظ من قال بكفر مبغض أبى طالب لأن فيه إيذاء للنبى وإيذاؤه (ص) كفر يقتل فاعله إن لم يتب.

وعند المالكية يقتل فاعله إن لم يتب وعندهم أيضاً يقتل وإن تاب.

وسأذكر لك نبذة من أخبار أبى طالب تعلم بها محبته للنبى (ص) وتعلم محبة النبى (ص) له وأنه يؤذيه بغضه وتعلم بها أن ماذهب إليه القرطبى والسبكى والشعرانى والسحيمى له وجه وجيه.

فمن أخبار أبى طالب أنه ربه النبى (ص) أحسن التربية وكان يقدمه فى البر على أولاده وشرح ذلك يطول ثم لما بعثه الله تعالى تعرض قريش لإيذاؤه فمنعهم أبو طالب.

وقال لهم إن ابن أخى فى حمايتى فلم يستطيعوا أن يردوا حمايته فصار (ص) يدعو الناس إلى الله جهراً فلما فشلت دعوته (ص) شق الأمر عليهم فاجتمعوا وجاءوا

إلى أبى طالب بعمارة بن الوليد.

وقالوا له خذ هذا بدل محمد ويكون كالابن لك واعطنا محمداً لنقتله.

فقال ما انصفتُمونى يا معشر قريش آخذ ابنكم اربيه واعطيكم ابنى تقتلونه ثم قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى اوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وعلمت إنك نا صحنى^(١) ولقد دعوت وكنت ثم امينا
لولا الملامة او حذار مسبة لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

ولما تزوج النبى (ص) خديجة بنت خويلد رضى الله عنها خطب ابو طالب وحضر ابو بكر ورؤساء مضر.

فقال ابو طالب فى خطبته الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن اخى هذا محمد بن عبد الله

(١) كتب الشنوانى على شرح الفاكهى عند قول ابى طالب ودعوتنى وعلمت الخ ما نصه هو مات كافرا وهو عم النبى (ص) بخلاف ابويه (ص) فانهما ماتا مؤمنين لكن نقل الشيخ البراوى عن الشيخ السجيني عن غيره ان الله احيا ابا طالب وآمن به واماته ثانيا مؤمنا ودخل الجنة وقال البراوى من كان يحب النبى (ص) وآله واصحابه واتباعه فليعتقد ذلك ونقل ما تقدم من إحيائه واماته ثانيا مسلما عن اربعة عشر صحابينا وهو من خصوصيات ابى طالب وهذا لا ينافى الأخبار الواردة بموته كافرا لأننا نقول إنه مات ثم احيى كما مر ا هـ.

لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلأ وفضلا وعقلا فإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم.

فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فقال:

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عدت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل لذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على كذا ثم سكت.

فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها وهو عمر ابن أسد.

فقال عمها: اشهدوا يا معشر قريش إنى قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد. فقبل النبى (ص) النكاح.

فتأمل خطبة أبى طالب وذكره شأن النبى وتفروسه فيه كل خير وكان ذلك قبل مبعث النبى بخمس عشرة سنة.

وأخرج البيهقى عن أنس قال جاء أعرابى إلى النبى (ص) وشكا الجذب والقحط وأنشد أبياتا فقام رسول الله حتى صعد المنبر فرفع يديه إلى السماء ودعا فما ردّ يديه حتى التقت السماء بأبراقها ثم بعد ذلك جاءوا يضجون من المطر خوف الغرق فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه.

ثم قال لله درّ أبى طالب لو كان حيا لقرت عيناه . من ينشدنا قوله ؟ فقال على
رضى الله عنه وكرم الله وجهه كأنك تريد قوله :

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال (ص) : أجل .

وهذا البيت من قصيدة طويلة لأبى طالب قالها حين كان يذب قريشاً عن النبى
منها قوله :

كذبتهم وبيت الله نبزى محمداً	ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله	ونذهل عن ابنائنا والحلائل
لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد	واحبيبه داب المحب الموصل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل	إذ قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عاقل غير طائش	يوالى إلهاً ليس عنه بغافل

ومنها قوله :

وقد علموا ان ابننا لا مكذب	لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
وأصبح فينا أحمد فى أرومة	تقص عنها سورة المتطاول
حديث بنفسى دوته حميته	ودافعت عنه بالذى والكلال

والقصيدة طويلة وله اشعار كثيرة غيرها فى مدح النبى (ص) ولما حضرت الوفاة

أبا طالب جمع اشراف قريش وأوصاهم بوصية تدل على كمال محبته للنبي (ص) ومعرفته صدقه.

فقال يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب فيكم السيد المطاع وفيكم المقدام الشجاع والواسع الباع واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ولا شرقا إلا أدركتموه فلکم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حريكم الرب وانى أوصيكم بتعظيم هذه البنية يعنى الكعبة فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش وثباتا للوطاة وصلوا أرحامكم فإن فى صلة الرحم منسأة أى فسحة فى الأجل وزيادة فى العدد واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلکم اجيبوا الداعى واعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيها محبة فى الخاص ومكرمة فى العام وأوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاء بأمر قبيلة الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وإيم الله كأنى انظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا ودورها خرابنا وضعفأؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده قد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها.

يا معشر قريش كونوا له ولاة ولحزبه حماة وفى رواية دونكم ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى.

وقال لهم مرة لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فأطيعوه
تشدوا.

فانظر واعتبر كيف وقع جميع ما قاله من باب الفراسة الصادقة.

وقد روى أبو طالب عن النبي (ص) أحاديث منها ما ذكره الحلبي في سيرته
فقال: وروى أبو طالب عن النبي (ص) فقال حدثني محمد أن الله أمره بصلة الأرحام
وأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه غيره.

وقال سمعت ابن أخى يقول اشكر ترزق واكفر تعذب.

ولما مات أبو طالب نالت قريش من النبي (ص) من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في
حياة أبي طالب حتى أن بعض قريش نثرا التراب على رأسه الشريف وكان (ص) يقول
ما نالت منى قريش شيئاً أكره حتى مات أبو طالب.

ولما رأى قريشاً تهجموا على أذيته قال ياعم ما أسرع ما وجدت بعدك.

ومات هو وخديجة في عام واحد فكان (ص) يسمى ذلك العام عام الحزن.

وإنما أصلت الكلام في ذلك لتعلم محبة أبي طالب للنبي ومحبة النبي له. وتعلم
أيضاً أن ما قاله الأئمة الأعلام وهم القرطبي والسبكي والشعراني والسحيمي من أن
الله أحياء وآمن بالنبي (ص) له وجه وجهه.

ولذلك قال السحيمى وهو الذى اعتقده والقى الله به واقول ايضا كما قاله انه هو الذى اعتقده والقى لله به وهكذا ينبغى لمن له محبة للنبي (ص) وقرابته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فيجب على ولاة الأمر ثبت الله بهم قواعد الدين اجراء التأديب اللازم بما يحصل به الزجر سدا للذريعة وحسما للخوض فى مثل ذلك لما يترتب عليه من القتن العظيمة والله تعالى اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم امر برقمه خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام كثير الذنوب والآثام المرتجى من ربه الغضران احمد بن زينى دحلان مفتى الشافعية بمكة المحمية غفر الله له ولوالديه ومشايخه والمسلمين اجمعين آمين.

وصلى اللهم على سيدنا وموالانا محمد وعلى آله وسلم فى كل لمح ونفس عدد ما وسعه علم الله.

فهرس الكتاب

٤	- تقديم
١٤	- مقدمة المؤلف
١٩	- الباب الأول: إثبات الإيمان
٣٠	- الباب الثاني: أبو طالب والنبي
٤٧	- الباب الثالث: شعر أبي طالب
٥٥	- الباب الرابع: أبو طالب والشفاعة
٧٠	- الباب الخامس: نجاه أبي طالب
١٠٢	- ملحق (١)
١٠٤	- ملحق (٢)

مطابع سجل العرب

٩ شارع عماد الدين - القاهرة - ج.م.ع
ب. ٩٣٢٧٠٦ ص ب ١٣١٥ العتبة

هذا الكتاب

دعوة إلى أعمال العقل ليس في نسب
النبي (ص) فقط وإنما في التراث الإسلامي
بأكمله . فإن قضية التشكيك في أبي طالب
إنما الهدف منها التشكيك في النبي وفي
دعوته ..

وهي قضية واهية بلا جذور ولا أساس ..
والسؤال الذي يطرح نفسه هنا :
ما هي الفائدة من وراء تكفير أبي طالب؟
ما هي الفائدة من التشكيك في إيمان
السند الأكبر للنبي (ص) في بداية
الدعوة ؟

ما هو الهدف من وراء هذا الموقف من أبي
طالب وأبوى النبي في الوقت الذي تضي
صبغة الإسلامية والإيمان على أبي سفيان
وولده معاوية والحكم بن العاص وولده
مروان الذين كانوا وبالا على الإسلام
والمسلمين ولعنوا على لسان الرسول ؟